University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع والثلاثون – 30/ ديسمبر (2017)

الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن الإمبراطورية

* د. صلاح الأمين عبدالله، ** الصديق المبروك عمران.

(* أستاذ التاريخ الأوروبي الوسيط المساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم المرج - جامعة بنغازي - ليبيا.
** طالب دراسات عليا شعبة التاريخ الوسيط - كلية التاريخ والحضارة - جامعة السيد محمد بن على السنوسي - البيضاء - ليبيا)

الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن الإمبراطورية

الملخص:

تعد الإمبراطورية البيزنطية امتداداً طبيعياً للإمبراطورية الرومانية، كذلك هو الحال بالنسبة للجيش البيزنطي الذي يعد الابن الشرعي للجيش الروماني المتأخر، وقد استمر الجيش البيزنطي في شكله القديم حتى القرن الخامس الميلادي على الأقل. وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية في الجيش لقرون عدة حتى حلت مكانها اللغة اليونانية، ومع ذلك فقد ظلت العديد من المصطلحات الرومانية العسكرية قيد الاستخدام طول تاريخ الإمبراطورية. في فترة ما بعد الفتوحات الإسلامية، والتي شهدت خسارة الإمبراطورية البيزنطية لمصر والشام وشمال إفريقيا، تم سحب البقية الباقية من جيوش الولايات، ووضعها في الأناضول للدفاع عنها ضد المسلمين وكان ذلك بدء بتنفيذ نظام الثيمات. وعلى الرغم من الكوارث الجسام التي تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية وتكالب الأعداء عليها في كثير من الأحيان، فإن الشكل التنظيمي الداخلي للجيش ظل كما هو تقريباً، ويكاد يكون هناك استمرارية في التقاليد العسكرية المتبعة منذ القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الميلادي. وقد أدت غزوات دولة السلاجقة المتلاحقة للأناضول، بالإضافة إلى غزوات النورمان لجنوب إيطاليا إلى إضعاف الإمبراطورية البيزنطية سياسياً وعسكرياً، الأمر الذي دفعها للاعتماد بشكل كبير على المرتزقة الأجانب.

الكلمات الرئيسية: الجيش، الإمبراطورية البيزنطية، الإمبراطورية الرومانية، التقاليد العسكرية.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع والثلاثون – 30/ ديسمبر (2017)

The Byzantine army and its defensive methods for the Empire

*** DR. SALAH .A .A SULAYMAN, ** AL SADEQ M. OMRAN**
salah.lamine@uob.edu.ly

* Assistant Prof, Department of the History, Faculty of Social Sciences and Humanities Al-marj, University of Benghazi – Libya. January 2018

Abstract

The Byzantine army was the primary military body of the Byzantine armed forces, serving alongside the Byzantine navy. A direct continuation of the Roman army, The Byzantine army maintained a similar level of discipline, strategic prowess and organization. It was among the most effective armies of western Eurasia for much of the Middle Ages. Over time the cavalry arm became more prominent in the Byzantine army as the legion system disappeared in the early 7th century AD. Later reforms reflected some Germanic and Asian influences–rival forces frequently became sources of mercenary units; Huns, Cumans, and Turks, meeting the Empire's demand for light cavalry mercenaries. Since much of the Byzantine military focused on the strategy and skill of generals utilizing militia troops, heavy infantry. From the 7th to the 12th centuries AD, the Byzantine army was among the most powerful and effective military forces in the world–neither Middle Ages Europe nor (following its early successes) the fracturing Caliphate could match the strategies and the efficiency of the Byzantine army. Restricted to a largely defensive role in the 7th to mid-9th centuries AD, the Byzantines developed the theme-system to counter the more powerful Caliphate.

Key words: Army, Byzantine Empire, Roman Empire, Military Traditions.

- المقدمة:

مثلت الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها وحتى انهيارها وسقوطها في يد الأتراك العثمانيين أحد عشر قرناً من تاريخ الإنسانية سعى أباطرتها لمجارات حضارة الرومان بكل قيمها في محاولة لإسقاط هيبة الإمبراطورية الرومانية وما وصلت إليه من عظمة ومحاكاة تراثها ومزجه بالإمبراطورية البيزنطية وحكامها الذين لقبوا بأباطرة الرومان، وإن كانت قد توجهت للشرق بكل قيمة منذ قرونها الأولى وذلك ناتج من الفوضى السياسة التي شهدتها روما جراء تدخل جيشها في عزل الأباطرة وتعيينهم سيما في الفترة الممتدة ما بين عامي 235-285م، بل وإقحامه في كثير من القضايا التي أخذت منه الجهد والوقت كاضطهاد معتنقي الديانة المسيحية الذين اظهروا جلداً وصبراً أمام ذلك القمع مما قلل من هيبة الجيش وقيمته، وتسبب في شرخ اجتماعي كان عاملاً على المدى البعيد من عوامل ضعفها ومن ثم أفول نجمها.

الجيش البيزنطي يمثل القوات النظامية للإمبراطورية البيزنطية، وهو سليل التقاليد العسكرية التي كانت متبعة في الإمبراطورية الرومانية والجيوش الإغريقية الهلينستية. وقد حافظ الجيش على درجة عالية من الانضباط، والكفاءة التكتيكية وحسن التخطيط.

تكمن أهمية البحث في الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن إمبراطورية، في الكيفية التي استطاعت بها الإمبراطورية البيزنطية الاستمرار تحكم منطقة بين امتداد وانكماش طيلة أحد عشر قرناً تقريباً. حيث رأى الباحث أهمية كبيرة سواء بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية أو تاريخ أوروبا في العصور الوسطى أو تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب وذلك لأهمية الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن الإمبراطورية.

تهدف الدراسة لإلقاء الضوء على تحديد دور الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن الإمبراطورية البيزنطية، وإبراز أثره على قيام وازدهار الامبراطورية البيزنطية. وكذلك تهدف للوصول إلى بعض الحقائق التي قد تقودنا إلى فهم بعض الغوامض التاريخية عن موضوع الدراسة، وكذلك دراسة جديدة لبعض الأحداث التي صارت في طيّ النسيان، ورأيت من واجبي أن أمد يدي لالتقاط غموض هذه الأحداث، حتى تظهر للملأ، وتطفو على السطح. لكن ما السِّر في بقائها طيلة ألف ومائة عام ونيف شامخة البنيان برغم ما مرت به من صدمات أدت لاختفائها ثم نهوضها؟

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج السردي التاريخي، حيث نقوم بجمع المادة العلمية من المصادر القديمة، والمراجع الحديثة التي درست تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بصفة خاصة، للوقوف على سماته وخصائصه وتأثيراته المباشرة وغير المباشرة على الإمبراطورية البيزنطية، بغية الوصول واستخلاص النتائج المستفادة من دراسة هذا الموضوع.

لقد تعددت الدراسات التي بحثت في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وما وصلت إليه من تقدم وحضارة فمنها على سبيل المثال لا للحصر:

يعتبر العالم بوري Bury (1861-1927م) من أعظم المشتغلين بالدراسات البيزنطية. ألف ثلاثة مجلدات في التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية، تتناول التاريخ البيزنطي من سنة 365م حتى سنة 867م، نشر المجلدين الأولين سنة 1889م بعنوان: History of the later Roman Empire Arcadius to Irene. وانتهى في هذين المجلدين إلى سنة 800م، أي إن زمن تتويج شارلمان إمبراطوراً، روما، على يد البابا ليو الثالث. أما الكتاب الثالث، فإن بوري نشره سنة 1912م بعنوان: History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil. وتناول فيه الحوادث من سنة 802م حتى سنة 867م، وأعاد بوري سنة 1933م نشر المجلدين

الأولين؛ غير انه وقف فيهما عند نهاية حكم جستنيان سنة 565م بعد أن أضاف إليهما زيادات ومادة جديدة.[1]

تاريخ المؤرخ بوري يستوجب الاهتمام، إذ حرص على معالجة تاريخ الشطر الشرقي من الامبراطورية حتى سنة 800م، ولم يغفل ما جرى في الشطر الغربي من الحوادث، وهذا يتفق بطبيعة الحال مع فكرة وحدة الإمبراطورية الرومانية، ولم يقتصر بوري على معالجة التاريخ السياسي، بل أفرد فصولاً لمعالجة موضوعات الحياة الدينية في الإمبراطورية البيزنطية والإدارة والأدب والحياة الاجتماعية والجانب العسكري والجغرافيا والفنون. واعتمد بوري على ما كتب في التاريخ البيزنطي من مصادر ومراجع روسية وبلغارية، بفضل درايته وإتقانه للغة الروسية واللغات السلافية (الصقلبية).

يعتبر فازيليف Vasiliev من أشهر المؤرخين المشتغلين الدراسات البيزنطية وكتابه عن تاريخ الامبراطورية البيزنطية، جرت ترجمته إلى لغات عديدة. والطبعة الانجليزية الأخيرة ظهرت سنة 1952م في أمريكا. وتناول هذا الكتاب دراسة تاريخ الدولة البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادي حتى سقوطها سنة 1453م. ولفازيليف كتاب يقع في ثلاثة مجلدات عن علاقة العرب بالروم ترجم إلى اللغة الفرنسية، ونقل الدكتور محمد عبدالهادي شعيره الجزء الأول إلى اللغة العربية بعنوان العرب والروم. ولفازيليف مقالات عديدة في التاريخ البيزنطي، نشرها في مجالات عديدة ولا سيما مجلة Byzantine التي تختص بالدراسات البيزنطية.[2]

أما كتاب الحضارة البيزنطية الذي إلفه ستيفن رنسيمان Steven Runciman وصدر سنة 1933م فاشتمل الفصل الأول منه على إنشاء مدينة القسطنطينية. وفي الفصول الأخرى مجمل لتاريخ السياسي والدستور، والإدارة، والديانة، والجيش، والأسطول، والدبلوماسية البيزنطية، والتجارة، وحياة المدن، والتعليم، والأدب، والفن. ثم جعل رنسيمان فصلاً من فصول الكتاب عن علاقة بيزنطة بالعالم الخارجي. عموماً ان كتاب الحضارة البيزنطية هو كتاب شامل للتاريخ الحضاري للإمبراطورية البيزنطية. حيث كان له الفائدة الكبيرة في متابعة التسلسل الزمني والأحداث التاريخية للإمبراطورية البيزنطية وخاصة في فترة الحروب الصليبية وظهور الدولة العثمانية وأثرها في سقوط الإمبراطورية البيزنطية نهائياً.[3]

أيضاً من الكتب المهمة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث وخاصة في الفصل الثامن من هذه الدراسة التي تتحدث عن الجوانب الحضارية لإمبراطورية البيزنطية وخاصة الجانب العسكري العالم الروسي أوستروجسكي Ostrogorsky الذي أصدره في عام 1940م باللغة الألمانية تحت عنوان تاريخ الدولة البيزنطية. ويعتبر الكتاب من الطراز الأول في الدراسات البيزنطية. عالج دراسة تاريخ الدولة البيزنطية حتى سقوطها 1453م. أشار باختصار إلى تاريخ الامبراطورية في الفترة بين 324 حتى 610م، وما يلي ذلك، راعى فيه التفصيل، واهتم بالمصادر والمراجع، واعتنى بما أورده من الحواشي، وأولى أوستروجسكي اهتماماً خاصاً بالناحية السياسية، وما تأثرت به الدولة البيزنطية من التغيرات السياسية التي حدثت في داخل البلاد وخارجها.[4]

كذلك من أشهر المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في منتصف القرن التاسع عشر. المؤرخ فينلاي Finlay وتناول كتابة تاريخ بلاد اليونان منذ الفتح الروماني حتى سنة

---

[1] Bury, J. B. *A History of the Roman Empire from its foundation to the death of Marcus Aurelius (27 B.C-180 AD)*, London, 1930, p. 16.

[2] Vasiliev, A. *A History of the Byzantine Empire 324-1453 AD*, Wisconsin, 1952, p. 5.

[3] ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، دار الفكر العربي، بيروت، 2005، ص9.

[4] Ostrogorsky. *History of the Byzantine State*, Trans - by Jon Hussey, Oxford, 1956, p. 4.

1864م. وفي سنة 1854م صدر مؤلفه عن الإمبراطوريتين البيزنطية واليونانية. ثم تلا ذلك ظهور مؤلفين عن تاريخ بلاد اليونان في الأزمنة الحديثة والمعاصرة. ويعتبر فينلاي أول من وجه الأنظار إلى الاهتمام بدارسة الأحوال الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية، والتعرف إلى النظم القضائية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعسكري، غير أنه لم يحاول الاعتماد على المصادر الأصلية. وبفضل ما اشتهر به من دقة الملاحظة، وشدة التمحيص، ودراسته للقانون والاقتصاد.[5]

وقسمت الدراسة إلى اربعة مباحث مع المقدمة والخاتمة على النحو الآتي:

المبحث الاول، نتناول فيه (الإصلاحات العسكرية بين عامي 284-337م). وهي الفترة الحقيقية لقيام الإمبراطورية البيزنطية، وتراوحت بين الإصلاحات الجبرية والإصلاحات التي مست المواطن البيزنطي وأبدى حيالها ارتياحاً وإن كانت كل تلك الإصلاحات انعكست على الجيش وعودة هيبته.

المبحث الثاني، يتكون من (تقسيمات وعناصر الجيش البيزنطي). يعتبر جيش الإمبراطور جستنيان هو ثمرة الإصلاحات التي حدثت في القرن الخامس، لمواجهة الأخطار المتزايدة التي تحدق بالإمبراطورية، والتي كان أخطرها هو الإمبراطورية الفارسية. ونتيجة لهذه الإصلاحات تم حل الفيالق الرومانية القديمة، وحل محلها كتائب صغيرة من المشاة. ويتضمن ايضاً تغلغل العناصر الأجنبية في الجيش البيزنطي وهي سياسة الأمر الواقع سيما فترة انسياب هجرات الجرمان داخل الإمبراطورية البيزنطية قبل عصر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول.

المبحث الثالث، ويشمل (الجيش البيزنطي بين الصدام والدبلوماسية). بحيث أصبحت تلك السياسة تتميز بها الامبراطورية عن غيرها وتؤتي ثمارها فبالسياسة كسبت الإمبراطورية البيزنطية ما لم تكسبه بالحروب، وإن كانت بعض سياساتها دلت على خنوعها واستسلامها.

أما المبحث الرابع، ويحتوى على (النتائج ومناقشتها). المستنبطة من خلال إلقاء الضوء على تاريخ تأسيس الجيش البيزنطي منذ قيام وازدهار الامبراطورية البيزنطية، وحتى اضمحلالها وسقوطها. وخوضها لمعارك على جبهات مختلفة تعددت أسبابها واختلفت نتائجها.

أسأل الله التوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه

(5) Finlay. *A History of Greece from the Conquest by the Romans to the Present Time (146 BC- 1864 AD)*, Oxford, 1877, p. 11-12.

المبحث الاول:

- الإصلاحات العسكرية بين عامي 284-337م:

بسياسة حكيمة وانتصارات كبيرة بفضل قوة عسكرية، غدا الجيش الروماني أحد العوامل الأساسية لعظمة روما وكانت البدايات الأولى للجيش الروماني مبنية على المواطنين والفلاحين تركوا الأرض لزراعتها وحملوا السلاح دفاعاً عن الوطن وما ان امتدت الإمبراطورية واتسعت حدودها خارج إيطاليا حتى أصبحت الحاجة ملحة للاحتفاظ بالجيش استعداداً لكل طارئ قد يحدث يزعزع استقرار روما وطمأنينتها.[6]

ثلاث قبائل عرفتها روما منذ نشأتها وهي قبائل تيتيس، ورمنس، لوقرس، وإن كان الظن فيها على أساس تقسيم المواطنين بحسب الجنس بمعنى قبيلة تيتيس تتألف من السابينيورمنس من اللاتين أما لوقرس فهم الأتروسقيين أو الأتروسكيين، فإن الأرجح في هذا التقسيم يأتي على أساس المواطنة ومقارهم السكنية، ومن ناحية أخرى هدف التقسيم بحيث تؤدي كل قبيلة ما عليها تجاه الدولة من مال وجنود بناءً على طلب الملك وهو السلطة العليا التي لا يرد لها أمر.[7]

قد تألف الجيش الروماني منذ وقت مبكر من ثلاثمائة من المشاة، وكذلك ثلاثمائة من الفرسان يتم تجنيدهم من القبائل الثلاث السابق ذكرها ويظهر من ذلك إن إسهامات كل قبيلة مائة فارس ومائة جندي ومن يتم تجنيدهم قادرين على تزويد أنفسهم بالسلاح.

بحكم أن الامبراطورية الرومانية لا تزود جنودها بالأسلحة كم مرّ بنا فقد قسمت مواطنيها على أساس ثروتهم ومدى جهوزيتهم للقتال من تلقاء أنفسهم فقسم الجيش نصفين جزء من الشباب والنصف الآخر من الشيوخ كل ذلك نوع من الإجراءات نحو زيادة عدد الجيش.[8]

قد شهد الجيش الروماني تطوراً ملحوظاً منذ حوالي عام 104ق.م، إذا اعتمد في تكوين الجيش على نظام التطوع في الخدمة العسكرية بديلاً عن الخدمة الإجبارية، كما وجد تسليح العسكري كحمله للسيف ولحربه طويلة وكان لكل فرقة وكتيبة علمها الخاص.[9]

إن الأساس الذي قام عليه الدستور الروماني هو النظام العسكري وكان من أنجح الأنظمة العسكرية في العالم، فأصبح من أكبر العوامل التي ساهمت في قوة الجيش، وانتصاراته، كل ذلك ناتج من حسن في التنظيم، فالشاب الروماني يعد للحرب منذ نعومة أظفاره فما يدرس من علوم يؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ويستمر لسنتين في ميادين القتال وفي المعسكرات لتلقي أفضل أنواع فنون القتال في الحروب.[10]

إن كان الجيش سبباً في تقدم الإمبراطورية الرومانية وازدهارها واتساعها لتشمل أراض شاسعة فإن تدخل الجيش في الحياة العامة، بل وفي تعيين وعزل الأباطرة سبب ارباكاً للمشهد وزعزعة للاستقرار أكثر مما دفع بالإمبراطور دقلديانوس (284-305م) بعد توليه زمام الامور في الإمبراطورية عام 284م بإصلاحات إدارية وعسكرية فصل بين السلطة العسكرية والمدنية ومن هنا استشعر الخطر

---

(6) حسين الشيخ، الرومان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص127.
(7) إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام 135ق.م، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، 1978، ج1، ص95.
(8) المرجع نفسه، ص162،99.
(9) إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام 133ق.م، مكتبة الانجلو المصرية، (بدون تاريخ) ج2، ص200.
(10) ويل وإيريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج3، دار الجيل، بيروت، 1955، ص71-73.

المحدق بروما والمتمثل بهجمات البرابرة فيتطلب الأمر قوة عسكرية توضع في أماكن متعددة من الإمبراطورية.[11]

ركز الإمبراطور دقلدياتوس في إصلاحاته على تقوية سلطة الإمبراطور بحيث تتطلب الأوضاع قوة عسكرية كبيرة في كل منطقة يمكن أن تتعرض لهجمات البرابرة القادمة لا محالة، فقسم الإمبراطورية قسمين: شرقي تولاها دقلديانوس بلقب أوغسطس، وغربي وعهد به لزميله مكسيميان (286-305م) ولقب هو الآخر بأغسطس وقسم الإمبراطورية إلى أربع إدارات متمثلة في إيطاليا وبلاد غالة والليريا أم المنطقة الرابعة فهو الجزء الشرقي الذي تولى أمره هو ومقر إقامته نيقوميديا.[12]

لقد حكم الإمبراطور دقلديانوس من أجل إحياء مجد الرومان بكل قيمة فأعطى نفسه نوعاً من القدسية وزاد من قدسيته ادعائه انحداره من جوبتير ملك الإلهة لكن معتنقي المسيحية لم يقبلوا فكرة عبادة كائن حي وإن كان الإمبراطور نفسه وبحكم أنه قائد الجيش واجه ذلك بقوة ومكنه مركزه من التنكيل بالمسيحيين فكان عصره هو بداية الاضطهاد الفعلي للمسيحيين وإن سبقه الإمبراطور نيرون (37-67م) ومن جاء بعده حتى عرف عصر دقلديانوس بعصر الشهداء.[13]

وُيلقى بعض المؤرخين باللائمة على الإمبراطور دقلديانوس وإصلاحاته وما يعنينا منها العسكرية، بأنها مسئولة عن تصدع الكيان الروماني في الغرب فالفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية زاد من سوء الأوضاع، كما أن تنظيماته زادت من عدد الموظفين واتسعت البيروقراطية، كما إن تقسيم الإمبراطورية بين إمبراطوريين وقيّصرين لم ينه مشكلة الصراع على السلطة.[14]

ما إن تنازل الأغسطس دقلديانوس وزميله مكسيميان بحسب موجبات الحكم الرباعي عام 305م حتى سادت الفوضى في البلاد وأدى ذلك لنشوب حرب أهلية بالإمبراطورية البيزنطية، استطاع من خلالها الإمبراطور قسطنطين الأول (306-337م) من بين خصومه أن يسلك طريقاً وسطاً بين تلك الحالة من الاحتراس كي يصل للحكم عام 324م، فقد سبق كل ذلك أن أصدر مرسوم ميلانو 313م القاضي بجعل الديانة المسيحية أحد الاديان السائدة داخل الامبراطورية بعد أن تعرضت لموجة من الاضطهاد على يد الإمبراطور الراحل دقلديانوس، تلك سياسة اتبعها قسطنطين الأول كي يضمن معتنقي المسيحية إلى جانبه في صراعة مع خصوصه بالرغم من أنه لم يقطع حبل الود مع الوثنيين وسمي نفسه الكاهن الأعظم، وأصبحت الطقوس المسيحية إذن تمارس بتصريح من أعلى سلطة في الإمبراطورية.[15]

إن النظام الحربي الذي وضع أساسه الإمبراطور دقلديانوس من أجل الدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية بكل قيمها تحت قيادته في الشرق ومكسيميان زميله في الغرب استوجب جيش قوي دائم يمكن أن يتنقل بسهولة، ومهمة الجيش لا تتوقف على حماية حدود الإمبراطورية من الأخطار الخارجية، وإنما أيضاً لحماية سلطة الإمبراطورية، وهذا ما وصل إليه الإمبراطور قسطنطين الذي سلك طرقاً متعددة في مهادنة أطراف كالمسيحيين مثلاً وسحق آخرين كخصومه لينتهي الأمر باقتفاء أثر الإمبراطور دقلديانوس هذه المرة باتجاهه للشرق فبنى عاصمته القسطنطينية عام 330م.[16]

---

[11] محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص19-20.

[12] محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا العصور الوسطي، دار النهضة العربية، بيروت، 1982، ص36-39.

[13] جوزيف نسيم يوسف، معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص38.

[14] عبدالقادر أحمد يوسف، العصور الوسطى الأوروبية، مكتبة العصر، بيروت، 1968، ص25.

[15] عفاف سيد صبرة، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ص22-23.

[16] السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية 323-1081م، دار النهضة العربية، بيروت، 1982، ص28-29.

لعل تلك الاصطلاحات ساهمت في أثقال كاهل الإمبراطورية من ضخامة قوائم المرتبات التي تدفعها الدولة للجنود في زيادة مبالغ فيها، فقد ترتب على تقسيم الجيش بحسب المناطق الإدارية الأربعة إلى وجود أربعة قصور وأربع عواصم فلم يكن بداً من تغطية ذلك العجز في الموازنة إلا بفرض نظام ضريبي صارم منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس.[17]

قد ظلت إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس قائمة بحسب النظام الرباعي طيلة المدة التي كان يسير بها الحكم وأمكنه ذلك من قمع الاضطرابات التي قامت في عدة أجزاء من الإمبراطورية أبرزها الاضطرابات التي تم قمعها من قيام الإمبراطورية البريطانية على يد كارسيوس قائد أسطول بحر المانش، فقد تم القضاء على تلك الحركة نهائياً عام 296م. لكن هذا النظام ما كان له أن يستمر ما بعد الإمبراطور دقلديانوس فما إن تنحى عن الحكم حتى دب الخلاف وسادت الفوضى في تولي الحكام (الاغسطس) ولم يرض الناس باعتلاء كرسي الحكام (القيصر) وأذكيت نار العداوة بين خلفاء دقلديانوس إلى أن استطاع قسطنطين إزاحة خصمه ماكسينتيوس في الغرب كما أزاح ليكينيوس خصمه في الشرق وظل الأمر في غير استقرار بين قسطنطين وليكينيوس خصمه في الشرق حتى 323م فاستولى قسطنطين على زمام الأمور وأصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية.[18]

لقد أثبت الإمبراطور قسطنطين الأول قدرة فائقة في تسيير أمور الإمبراطورية منذ توليه الحكم في سن الثانية والثلاثين من عمره استطاع كما مرّ بنا ان يقضي على خصومه وأن يصدر مرسومه الشهير، مرسوم ميلانو، ومماالاته للوثنيين، وعقد أول مجمع عالمي لحل بعض المشاكل بين طوائف المسيحية، واتجاهه بالكامل للشرق، وبنائه للقسطنطينية واتخاذها عاصمة، كل تلك السياسة تنم عن عقلية فذه وبعد نضر، إلى جانب إدخاله مبدأ التوريث في الحكم، فأصبح في عَقبه مستند لدعم الجيش، ومعاضدة أنصار المسيحية، وما إن خلا له الجو حتى اهتم بتكوين جيش قائم بنفسه للقتال، وزوده بفرق الخيالة، وفصلها عن المشاة، إضافة لفرق الحرس الإمبراطوري، ليشهد عصره استقراراً ملحوظاً وما إن توفي قسطنطين 337م حتى ترك إمبراطورية شاسعة الأراضي هيمنت على المنطقة بفضل شخصيته التي سحرت الألباب وإصلاحات كان من ضمن أهمها تطوير الجيش الذي أعاد للإمبراطورية البيزنطية هيبتها ومكانتها.[19]

المبحث الثاني:

- تقسيمات وعناصر الجيش البيزنطي:

يعتبر جيش الإمبراطور جستنيان (518-527م) هو ثمرة الإصلاحات التي حدثت في القرن الخامس الميلادي، لمواجهة الأخطار المتزايدة التي تحدق بالإمبراطورية، والتي كان أخطرها هو الإمبراطورية الساسانية الفارسية. ونتيجة لهذه الإصلاحات فقد تم حل الفيالق الرومانية القديمة. وحل محلها كتائب صغيرة من المشاة، أو أفواج من الفرسان تسمي التاجماتا Tagmata أو نوميروس. وتتكون التاجما من 300-400 رجل يقودها قائد يحمل الرتبة تريبيون Tribune. وتشكل وحدتين أو أكثر من التاجما لواء.[20]

كان هناك ستة تقسيمات لقوات الجيش البيزنطي:

---

[17] دونالد. ر. دولي، حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم وفاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة (بدون تاريخ) ص342-344.
[18] دونالد، حضارة روما، ص346،344.
[19] محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، مطبعة الجمهورية، 1988، ص51-69.
[20] H. John, *The Byzantine Wars*, Stroud: The History Press, 2008, p. 29.

1. قوات الحرس الإمبراطوري Guard troops ومقرها القسطنطينية.
2. الجيوش الرومانية الميدانية القديمة والتي تعرف باسم Comitatenses وكان يطلق عليها في عصر الإمبراطور جستنيان اسم Stratiotai وهم الجنود النظاميين في الدولة الرومانية، وكان يتم تجنيد الستراتوتاي من رعايا الإمبراطورية الذين يسكنون الأراضي الجبلية كما هو الحال في إقليم تراقيا، إيليريا، إيسوريا.[21]
3. القوات الحدودية Limitanei وهي أقل عناصر الجيوش البيزنطية تأثراً بالتغييرات والإصلاحات، فلم يطرأ عليها تغييرا يذكر، واستمرت تمارس دورها المهم في حراسة الحدود.
4. الفوديرتي Foederati ويطلق عليها أيضاً اسم القوات الصديقة، وهم عنصر جديد نسبياً في الجيش، وكان يتم تجنيدهم منذ القرن الخامس الميلادي فصاعداً من المتطوعين الجرمان البرابرة، ويقاتلوا في تشكيلات من الخيالة يقودهم ضابط بيزنطي.
5. الحلفاء وهم قبائل الهون والقوط، وغيرهم من البرابرة الذين تعهدوا - وفقاً لاتفاقيات مسبقة - بتزويد الإمبراطورية بوحدات عسكرية يقودها قائد منهما في مقابل منح الإمبراطورية لهم بعض الأراضي أو مبالغ مالية.[22]
6. البوسيليرياي Bucellarii هي قوات خاصة تخدم تحت إمرة القادة من رتبة بريتوريان بيرفيكتوس Praetorian Prefects فأقل وتخدم أيضاً الأغنياء والميسورين إذا فهي قوات لا تتبع الإمبراطورية مباشرة. وكانت قوات البوسيليرياي تشكل نسبة كبيرة من قوات الخيالة، أما عن عددها فيتوقف ذلك على ثروة الشخص التي تخدم تحت قيادته، ويعطي قادتهم لقب دوريفوروي Doryphoroi أو حملة الرماح. وكان هؤلاء القادة المعروفين باسم الدوريفوروي يحلفون يمين الولاء لزعيمهم الأعلى - الذي يدفع لهم - وللإمبراطور. ومن أشهر أمثلة القادة الدوريفوريين القائد البيزنطي الأشهر بليزاريوس الذي كان دوريفوروي في حاشية الإمبراطور جستنيان قبل أن يصبح إمبراطوراً. وكانت قوات البوسيليرياي في أغلبها تنتمي لقبائل الهون والقوط وسكان المناطق الجبلية في تراقيا وآسيا الصغرى.[23]

بلغ عدد جيوش الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور جستنيان قرابة الـ 500,000 مقاتل تقريباً، وكان عدد الجيوش الميدانية ما بين 50,000 - 100,000 مقاتل تقريباً. وكان أغلبها من الجيوش الميدانية المعروفة باسم الكوميتاتنسيس Comitatenses والقوات الصديقة، وكان يتم دعمها بقوات البوسيليرياي Bucellarii وقوات الحلفاء التي كان أغلبها من البرابرة. وتعد حملة بليزاريوس سنة 533م لاستعادة قرطاج مثال واضحاً على هذا التشكيل.[24]

فقد تكون جيش بليزاريوس من 50,000 من جند الدولة النظاميين (الكوميتاتنسيس) والقوات الصديقة (مشاة) بالإضافة إلى 15000 من الخيالة، وكان هناك 10000 فارس من حملة السهام (6000 فارس من الهون، ومن قبائل الهيرول 4000 فارس). وقد شارك في الحملة أيضاً قوات من حاشية بليزاريوس أو حرسه الخاص المعروفة باسم البوسيليرياي وقد بلغ عددها ما بين 20,000 - 35,000 مقاتل أغلبهم من الخيالة. وقد انطلقت تلك الحملة من خليج البوسفور إلى شمال أفريقيا على متن 1000 سفينة حاملة للجند تحرسها 250 سفينة حربية.[25]

---

(21) T. Warren, *History of the Byzantine State and Society*, Stanford (California): Stanford University Press, 1997, p. 117.

(22) John, *The Byzantine Wars*, p. 31.

(23) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص65-66.

(24) T. Dawson, *Klivanion* revisited: an evolutionary typology and catalogue of middle Byzantine lamellar, *Journal of Roman Military Equipment Studies*, 12/13 (2001), pp. 11-24.

(25) رنسيمان، المرجع السابق، ص66.

قد أضطر البيزنطيون لتغيير خططهم العسكرية ومعداتهم الحربية للتعامل مع الخطر الفارسي المتنامي، فقد أقتبس الرومان من الفرس العديد من أنواع الدروع، وقمصان زرد، وأخذوا عنهم نظام الفارس المدرع بالكامل من عينية إلى قدميه والذي يقاتل بالحربة والقوس وقد عرف في الجيش البيزنطي باسم الكاتافركتاس Cataphracts.[26]

كان يشارك في القتال أعداد كبيرة من المشاة الخفاف مزودين بالأقواس، وكانت مهمتهم دعم قوات المشاة الثقيلة المعروفة باسم سكوتاتي scutatii (Meaning shield men). وكانوا يرتدون معاطف من زرد، ويحملون الرماح، الفؤوس والخناجر. وكانوا يشكلون المركز (الوسط) في خطوط البيزنطيين الحربية. بينما يشارك المشاة حملة الحراب في المواقع الحربية التي تكون مناطق المرتفعات والجبال ساحتها.[27]

من أشهر الأحداث الحربية الكبرى التي وقعت في عصر الامبراطور جستنيان، معركة دارا Daraسنة 533م، حيث تمكن جيش بليزاريوس من هزيمة جيش الإمبراطور الساساني المؤلف من 100,000 مقاتل. بالإضافة إلى استعادته لقرطاج كما ذكر من قبل، فقد تمكن بليزاريوس من استعادة صقلية، نابولي، روما، وبقية إيطاليا من القوط الشرقيين في حرباً استمرت من 536-540م. ومن القادة البارزين الآخرين الذين كان لهم دور في الحروب البيزنطية-القوطية، القائد الشهير نارسيس الذي هزم القوط الشرقيين في معركة باستا جالورام على الساحل الشرقي لإيطاليا سنة 552م.[28]

اتخذت الإمبراطورية البيزنطية العديد من الاجراءات لتدعيم الجيش البيزنطي، ومن هذه الاجراءات الاتي:

- اولاً: الثيمات:

هي مجموعة من التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية البيزنطية، تأسست في أواسط القرن السابع الميلادي بعد الفتوحات الإسلامية في الأراضي البيزنطية واستبدلت النظام السابق الذي أسسه الإمبراطوران دقلديانوس وقسطنطين. كانت هذه الثيمات في أصلها معسكرات الجيوش الميدانية من الجيش البيزنطي، حيث تستمد اسمها من الوحدات العسكرية. وطبقاً لهذه التقسيمات الجديدة فإن القائد العسكري يمارس صلاحياته المدنية والعسكرية في نفس الوقت دون فصل كما كان في السابق.[29]

في البداية كان هناك خمسة ثيمات كلها تقع في آسيا الصغرى، وترجع نشأتها إلى الجيوش الميدانية. وهي:

- **ثيم أرمينيا:** ورد ذكرها لأول مرة سنة 667م، وقد ورثت هذا الثيم جيوش الدولة في أرمينيا، واحتلت المناطق القديمة في بونطس، أرمينيا الصغرى، شمال كبادوكيا وكان عاصمتها أماسيا.
- **ثيم الأناضول:** ورد ذكرها أول مرة سنة 669م، وقد ورثت جيوش الإمبراطورية في الشرق، وقد غطت منطقة وسط آسيا الصغرى، وكانت عاصمتها عمورية.[30]
- **ثيم أوبسيكيو:** ورد ذكرها أول مرة سنة 680م، غطت منطقة شمال غرب آسيا الصغرى وأجزاء من غلاطية، وكان مركزها نيقيه. ويحمل قائدها لقب قومس (كونت).

---

[26] John, *The Byzantine Wars*, p. 31-32.
[27] Warren, *History of the Byzantine State and Society*, p. 118.
[28] C. Whately, "Battles and Generals: Combat, Culture, and Didacticism in Procopius' *wars*", Brill, 2015, p. 75.
[29] عبدالقادر أحمد يوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ص33.
[30] عفاف سيد صبرة، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص28.

- **ثيم تراقيا:** ذكرت لأول مرة سنة 680م، وقد ورثت جيوش الإمبراطورية في تراقيا، وقد غطت الساحل الغربي الأوسط لآسيا الصغرى (آيونيا، ليديا، كاريا) وكانت عاصمتها أفسوس.[31]
- **ثيم كارابيسياني:** ورد ذكرها أول مرة سنة 680م، وقد ورثت جيوش الإمبراطورية في إقليم إيليريا. وغطت الساحل الجنوبي لأسيا الصغرى وجزر بحر إيجة، وكانت عاصمتها أطاليا (أنطاليا حاليا). ويحمل قائدها اللقب درانجاريوس.[32]

في داخل كل ثيم من الثيمات السابقة، كان يتم منح الرجال الأكفاء الأراضي لينفقوا منها على عائلاتهم ولكي يزودوا أنفسهم بالعتاد اللازم (انظر الخريطة رقم 1).

خريطة رقم 1: رسم توضيحي لتقسيم الثيمات البيزنطية حوالي سنة 650م[33]

قد سببت الثيمات المشاكل والاضطرابات الداخلية داخل الإمبراطورية، فقد كان لاتساع مساحة كل ثيم عاملاً مهماً في إذكاء روح التمرد والعصيان ضد الحكومة المركزية بالقسطنطينية. لذلك قام بعض الأباطرة من أمثال ليو الثاني الأيسوري، ثيوفيلوس وليو الرابع الحكيم بتقسيم كل ثيم إلى مناطق أصغر، وقاموا بتحجيم نفوذ قادة الثيمات على الجيش وذلك بتعيين أكثر من قائد لجيوش الثيم الواحد. كما عمد الأباطرة من أفراد الأسرة المقدونية إلى خلق ثيمات جديدة في الأراضي التي افتتحوها. وقد بلغ عدد الثيمات في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع 28 ثيم. وفي بداية حكم الإمبراطور قسطنطين السابع استولى المسلمون على جزيرة صقلية وأسسوا بها أمارة صقلية الإسلامية سنة 905م. كما حكمت الإمبراطورية البيزنطية قبرص بالشراكة مع الخلافة العباسية.[34]

---

(31) Encyclopædia Britannica. (2017 AD). Retrieved 26th, July from 2017 to 28th, October from Encyclopædia Britannica Online: http://www.britannica.com/.

(32) G. T. Dennis, *Maurice's Strategikon, Handbook of Byzantine Military Strategy*, University of Pennsylvania Press, 1984, p. 13.

(33) W. Treadgold, *Byzantium and Its Army, 284-1081*, Stanford University Press, 1995, pp. 24-25.

(34) John, *The Byzantine Wars*, p. 78.

ـ ثانياً: تغلغل العناصر الأجنبية في الجيش البيزنطي:

مهما قيل عن الإمبراطورية البيزنطية في كونها إمبراطورية رومانية شرقية أم أنها دولة لا تستحق أن تنعت بإمبراطورية، إلا أن ذلك لا ينقص من قدرها كإمبراطورية كادت أن تكون وريثة للإمبراطورية الذي ارتبط أسمها منذ نشأة وقيام روما التي استطاعت أن تقود ما جاورها من مدن لتصبح عن استحقاق وجدارة عاصمة لأكبر إمبراطوريات سادت في حقبتين، وإن عاصرتها بعض الممالك والإمبراطوريات، فقد استطاعت أن تضم كل منطقة حوض البحر المتوسط، وحتى منطقة القرن الإفريقي، وتحالفها مع الأحباش حيث العقيدة الواحدة زمن الإمبراطور جستنيان.

لعل الاتجاه نحو إصلاح الجيش تلك السياسة التي اتبعها الإمبراطور دقلديانوس، دعته للاستعانة بالعناصر الأجنبية كفرق مرتزقة وخاصة الجرمان وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة لوأد أي حركة تمس الحدود ولذا زاد عدد الجيش عصر الامبراطور دقلديانوس كما أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجندي ليتدرج في سلك الجندية فوصل لمرتبة القائد الأعلى للجيش وكل ما يطلب منه ليس مؤهلاً وإنما خبرته في القتال وولائه لإمبراطورية.[35]

قد اقتفى الإمبراطور قسطنطين أثر الإمبراطور دقلديانوس حتى لا تكاد تفرق بين أعمال الرجلين فاستمرّ في سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط في الجيش البيزنطي كجنود نظاميين.[36] حيث اعتمد الإمبراطور قسطنطين في الإعداد للجيش فرق الخيالة، والتي كان جلها من البرابرة والجند الجرمان الغاليين.[37]

لم تكن إجراءات الإمبراطور دقلديانوس بتمكين العناصر الأجنبية من العمل بالجيش البيزنطي أمراً خارقاً للعادة جديد على نظم الجيش، وإنما تلك الظاهرة بدأت بوادرها منذ فترة سابقة لإصلاحات دقلديانوس، وبذا أصبح الباب مفتوحاً لتغلغل العناصر المتبربرة بالجيش لا سيما الجرمان. ومع مطلع القرن الرابع الميلادي وصلوا لمراتب عليا بالجيش فاصبحوا كبار قادته في تزامن لحركة فارسية تهدد الحدود الشرقية للإمبراطورية، فالساسانيون اعتبروا أنفسهم ورثة لما كان تحت أملاك الإمبراطورية الفارسية، كما البيزنطيين رأوا في أنفسهم ورثة للرومان.[38]

أمام حركة وتدافع الشعوب بالقارة الأوروبية التي أصبحت واضحة للعيان في الشمال الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية حيث نفذ الهون* حوالي عام 376م للأجزاء المعروفة برومانيا الحالية وهزم القوط الغربيين أمام قوة الهون الكاسحة فوجدوا في الإمبراطورية البيزنطية حظناً دافئاً بعد أن سمح لهم الإمبراطور فالنز باتخاذ بلغاريا الحالية مأوى لهم ومع ذلك تنكر القوط لصنيع الإمبراطور فعمدوا لمحاربته فكانت موقعة أدرنه هزيمة ساحقة للإمبراطور فالنز وجيشه وخرّ الإمبراطور صريعاً عام 378م[39] وبموت فالنز انتهت أسرة قسطنطين لتبدأ أسرة ثيودوسيوس وأول أباطرتها ثيودوسيوس الاول (379-395م) الذي أتجه إلى ممالاة القوط ومداراتهم بل وحتى الاستفادة منهم[40] إعفاء من الضرائب واستقلال ذاتي باستقرار في الأطراف الشمالية مع تراقياً مع جزيل العطاء مقابل الانخراط في الخدمة

---

[35] سعيد عبدالفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط5، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1972، ج1، ص39.
[36] المرجع نفسه، ج1، ص41-42.
[37] محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص24.
[38] السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص92.
* عنصر الهون من القبائل المغولية القادمة من الشرق الأقصى نتيجة لما ألم بها من قحط وجفاف وكان من ضمن الأسباب غير المباشرة التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية كانوا قبيحي المنظر موحشين ومن أشهر ملوكهم أتيــلا وقد استطاع الرومان إنزال هزيمة بالهون بمعركة شالون 451م. جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، ط2، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، 1987، ص74.
[39] هــ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، القسم الأول، ط1، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966، ص22.
[40] جوزيف نسيم يوسف، معالم التاريخ البيزنطي، ص63.

العسكرية ومع دخولهم الكبير في الجيش كمعاهدين غير أن جزءاً كبيراً منهم أثر الانخراط في خدمة الإمبراطور مباشرة وبذلك تجنبت الإمبراطورية دخول تغلغل الجرمان بأراضيها كمعتدين لأنهم بالفعل دخلوا في خدمة الإمبراطور والإمبراطورية.[41]

إزاء سياسة التغلغل تلك للعناصر الأجنبية ظهرت بعض الأصوات التي تحذر خلفاء ثيودوسيوس الأول من مغبة تلك السياسة فقد وجه أسقف برقة عندما زار تراقياً وجه خطاباً بحضرة الإمبراطور أركاديوس ونادى بوجوب تكوين جيش بيزنطي خالص مكون من المزارع والفيلسوف، واللاهي في لهوه لكنه لم يجد أذاناً صاغية، ومع الوقت ازدادت سطوت القوط الغربيين بانتخابهم ملكاً عسكرياً في سن الثلاثين وهو الأرك المقدام الجسور الذي أرعبت أخباره قلوب معاصريه فلم يتورع عن منكر فعله، هاجم أثينا، وغزا إيطاليا وأباح روما عام 410م.[42]

يبدو أن سياسة ثيودوسيوس الأول أمام الاجتياح الجرماني لأجزاء الإمبراطورية المختلفة أمراً مسلمٌ به لا محال وهي اعتبار العشائر الجرمانية أحلافاً للإمبراطور، فإلى جانب القوط الغربيين هاجم الوندال الإمبراطورية وهم جزءٌ من القوط الشرقيين انساحوا نحو غاليا، وسيطر الفرنجة على بلجيكا، كما قام البرجنديون مملكة عاصمتها فومز، وانتقل القوط الغربيون في تلك الفترة من إيطاليا إلى غاليا، ونتيجة لليونة الإمبراطور ثيودوسيوس مع الجرمان باعتبارهم أحلافاً معاهدين انشرحت صدور الدخلاء وضلت مدنية البيزنطيين موقع توقير وإجلال. وأخذت الإمبراطورية تألف الجندي الجرماني في فرق جيشها، وربما الواقع عمل عمله لتهيئة الظروف لحلول الجرمان دون منازع أنس فيهم البيزنطيين الكفاءة بل والمعونة حيث أصبح المنظور إليهم كأنما هم أداةً ألقت بها الصدفة في أيدي البيزنطيين لخدمة ما عسى أن يأتي من أغراضهم المستقبلية لا أعداء يقارعهم البيزنطيين في ميادين الوغى لإخراجهم من أملاك الإمبراطورية ولو تحت إكراه، بل إن نبلاء البيزنطيين تيقنوا أنهم بالإمكان أن يصلوا للعرش بمساعدة أولئك البرابرة.[43] لقد برز دور الجرمان واضحاً مبرهنين على ولائهم للإمبراطورية وحكامها، فالقوط الغربيون خرّ ملكهم صريعاً في ميدان القتال دفاعاً عن شرف الإمبراطورية والقوا بكل ثقلهم فكان نتيجة ذلك هزيمة للهون وملكهم أتيلا بمعركة شالون عام 451م.[44]

على الرغم من التفاني في خدمة الإمبراطورية البيزنطية وأباطرتها مباشرة وكمعاهدين بسماح ثيودوسيوس للجرمان بالانخراط في خدمة الدولة بسياسة حكيمة تهدف لاستغلالهم وتوظيفهم للاستفادة منهم للدفاع عن الإمبراطورية لإعطائهم استقلالاً ذاتياً في بعض المناطق وإعفائهم من الضرائب لكن ذلك لم يمنعهم من التدخل في شؤون الإمبراطورية الذي بات واضح البحث عن مصلحتهم بعد وفاة ثيودوسيوس الأول وتقسيمه للإمبراطورية بين أبنائه أركاديوس البالغ من العمر ثمانية عشر سنة حيث وهبه الشرق بينما هونوريوس البالغ من العمر أحد عشر سنة أعطاه روما ولكنهما لم يكونا في مستوى المسؤولية فوقعا تحت تأثير وزرائهما الجرمان[45] وقد وصل ذلك التأثير إلى صراع بين الوزيرين الجرمانيين روفينوس وزير أركاديوس وستيلكو القائد الوندالي للجيش والذي كان ثيودوسيوس قد أختاره وصياً على ابنه هونوريوس وأدى ذلك لتوسيع الهوّة بين الأخوين، بل والانقسام بين شطري الإمبراطورية جراء ذلك التنافس والذي أدى في آخر الأمر لانفصال الإمبراطورية البيزنطية عن الغرب.[46]

---

(41) السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص39.
(42) فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص23-25.
(43) المرجع نفسه، ص25-27.
(44) المرجع نفسه، ص28-29.
(45) سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1991، ص467-468.
(46) المرجع نفسه، ص468.

لم يعد يخفى على أحد أن القوط اعتبروا أنفسهم في حل من تعهداتهم مع الإمبراطور ثيودوسيوس بمجرد وفاته وأصبحوا يتصرفون بأملاك الإمبراطورية وأخذ القوط أنفسهم يتصارعون للسيطرة والتنفذ فذاق بهم أركاديوس الذي أخذ يتحين الفرص للقضاء على رموزهم باستغلالهم لتنفيذ بعض السياسات دون أن يدرون، وتارة أخرى بإعطاء الهيبات كتوجيه رجال الأريكوس أحد زعماء القوط بتوجيهه صوب إيطاليا فلم يعودوا لإزعاج أركاديوس لكن بقيت المشكلة الحقيقية التي تواجه أركاديوس القوط أصحاب الرتب العليا في الجيش، بل منهم من وصل إلى مرتبة زعماء السياسة في القسطنطينية إلى جانب انتشار القوط كخدم فلم يخلُ بيتٌ منهمْ فهم البنّائين والعتّالين لكن تصاعد أهمية ونفوذ الخصي إفتروبيوس إلى جانب غانياس القوطي ليستغل أركاديوس ذلك النفوذ لصالحه بإزاحة القوط من المشهد للمحافظة على الإمبراطورية البيزنطية من طبعها بطابع جرماني بنصح من رجال الدولة والدين.[47]

المبحث الثالث:

- الجيش البيزنطي بين الصدام والدبلوماسية:

الإمبراطورية البيزنطية بلغت أوجه عظمتها بفضل قوة جيشها فهو مصدر هيبتها الحقيقية، فتاريخ البيزنطيين هو تاريخ جيشهم طيلة أحد عشر قرناً وأن تخلل تلك الفترة نوعاً من الانكماش في سطوة وقوة الإمبراطورية المستمدة منه سواء أنتسب ذلك الجيش لمجد الرومان أم نعت بكونه جيشاً بيزنطياً خالصاً.

لعل من جملة ما خلخل استقرار الإمبراطورية غزوات البرابرة التي أدت إلى تداعيات خطيرة استجدت على تنظيمات الجيش وعلاقته بالحكومة المركزية، وتدخله في عزل وتعيين الأباطرة فما إن تولى الإمبراطور دقلديانوس زمام الأمور في الإمبراطورية حتى بدأ بإصلاحات مهمة للحد من تدخلات الجيش، فقسم الإمبراطورية إلى أربع مناطق إدارية، وادخل تحسينات بالكيفية التي يمكن من خلالها ضبط الإيقاع داخل الإمبراطورية، وتوجيه الجيش لدحر كل فتنة، والدفاع عن كل ما من شأنه المساس بحدود الإمبراطورية، وقد فضل البقاء في نيقوميديا حيث الحدود الشرقية، لأن الصدام سيكون واقع لا محالة مع الفرس التي تتربص قوتهم الدوائر بالإمبراطورية وجيشها،[48] وإن كان الإمبراطور دقلديانوس قد نجح في وضع سياسة للحد من التهديدات التي زعزعت كيان الإمبراطورية، إلا إن إعطائه مساحة كبيرة من وقته في محاربة المسيحية، والتنكيل بمعتنقيها كانت ضمن الأسباب التي عجلت بتنحيه عن الحكم ومع كل سياسته القمعية والتي استغل الجيش لتنفيذها إلا إن المسيحية كانت أكثر انتشاراً بعد تركه للحكم.[49]

إن ما قام به الإمبراطور دقلديانوس في فترة وجيزة كان إصلاحاً شاملاً بعيد الأثر، ولعل ما يهمنا من تلك الإصلاحات تجديده لنظام الجيش، وبسطه الأمن والنظام في كافة أرجاء الإمبراطورية، فكبد البرابرة خسائر فادحة على طول الراين والدانوب، كما استطاع صد هجمات الفرس عام 297م، واستردّ ما بين النهرين، ووسع حدود الإمبراطورية لسابق عهدها باستثناء أقاليم بسيطة، كما أخضع الثورات الداخلية في مصر وشمال أفريقيا وغاليا وبريطانيا، وسعى دقلديانوس لحماية العالم الروماني أمام الأخطار التي تهدده، ففكر في إنشاء قوة حربية متنقلة حيث يمكنها التحرك سريعاً لكل خطر وفق ما يرتضيه الإمبراطور.[50]

---

[47] أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ط1، دار المكشوف، بيروت، 1955، ج1، ص109-111.
[48] محمد سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص37-38.
[49] هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبدالعزيز توفيق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958، ص180-182.
[50] سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص35-36.

لم يقتصر هدف دقلديانوس من ابتعاده عن روما سعياً لإيجاد مركز يحفظ من خلاله مؤسسات الإمبراطورية من هجمات البرابرة فحسب، وإنما هروباً من تدخلات الجيش في عزل وتنصيب الأباطرة فعلى مدى خمسين عاماً قُتِلَ خمس وعشرون إمبراطوراً على يد قادة الجيش بين عامي 235-285م[51] لقد أصبح دقلديانوس سيد الإمبراطورية ومقدمها، فهو الذي أعاد للمنصب الإمبراطوري هيبته، وقضى على كل الفتن والثورات ولم تأخذه رأفة تجاه كل معارض في حذر ينظر فيه للماضي وما وصلت إليه الإمبراطورية من ضعف وفوضى نتيجة لعبث الجيش وتدخله بالسياسة الذي اتجه دقلديانوس لإصلاحه واتخذ منه اداءة طيعة لمقارعة الخصوم في الداخل بل والتنكيل بهم كما فعل مع معتنقي المسيحية والذود عن حدود الإمبراطورية في درء خطر الفرس عن الحدود الشرقية كل ذلك بفضل وجود جيش قوي بعث فيه الروح دقلديانوس نفسه[52]

إن كان دقلديانوس أتجه لفرض الإصلاح بالقوة، فإن خلفه الإمبراطور قسطنطين ما أستتب له الأمر وقضى على خصومه حتى ابتعد عن الإصلاحات الجبرية مما أعطى جواً من الهدوء والسلم، وابتعد عن إثقال كاهل الجيش والزج به في كل صراع داخلي، ورأى أن لا لزوم لحكم رباعي لإمبراطورية تظلها وحدة حقيقية، فأسس عاصمة واحدة وأنفرد بالحكم لكنه في نفس الوقت كان على يقين أن مشروعاً كهذا يحتاج لجيش قوي فاتجه لإصلاحات داخلية تهم المواطن، وابتكر مبدأ التوريث في الحكم، معتمداً في تحقيق ذلك على قوة الجيش ومعاضدة المسيحية التي رفع عنها الظلم والاستبداد وبهذه السياسة استطاع أن يبعث الأمن والاستقرار ويعيد الإمبراطورية مجدها وهيبتها حتى قضى نخبه عام 337م[53] ليترك الحكم لأبنائه من بعده قسطنطيوس الثاني (317-361م) وقنسطانز (320-350م) حيث دب بينهم الخلاف وما إن توفي قنسطانز وقسطنطيوس حتى خلى الجو لقسطنطين الثاني عام 350م وهزم منافسه ماجنيتيوس واستمر في الحكم حتى وفاته 361م، وفي هذه الفترة ظهر خطر الفرس، كما ظهر خطر القبائل الجرمانية التي كان قويً على الجبهة الغربية وكان لابن عم الإمبراطور القائد جوليان فضل في صد تلك الأخطار فنادى به جنوده إمبراطوراً (361-363م)[54] حيث بدأ حكمه بإصلاحات في نظم الإدارة، والقضاء، وأعلن عودة الوثنية من جديد، وحثهم على التسامح مع المسيحيين، وابعاد رجال المسيحية من مناصب الدولة، واستعاض عنهم بوثنيين، وأراد إعادة هيبة الإمبراطورية فغزا الفرس لكنه قتل عام 363م، فانتخب الجيش قائداً مسيحياً يسمى جوفيان، ونظراً لسوء أحوال الجيش صالح الفرس بتوقيع معاهدة لمدة ثلاثين عاماً تنازل فيها عن أربع ولايات وعن سيادة الإمبراطورية عن أرمينيا. ثم أعقبه فالنز (364-378م) اقتسم الحكم مع أخيه فالنتيان (364-375م) الذي حكم روما، بينما فالنز حكم الشرق، ولم يستطيع الجيش في عهده وضع حداً لحركة انسياب قوة الجرمان داخل الإمبراطورية ممّا دفع بفالنز لملاقاتهم فهزم جيشه ولقي مصرعه في موقعة أدرنه عام 378م.[55]

بمصرع فالنز انتهى عصر أسرة قسطنطين وساد تلك الفترة نوعاً من عدم الاستقرار وبدأ وكأن الإمبراطورية تفقد هيبتها إلى أن وقع الاختيار على ثيودوسيوس الاول إمبراطوراً فكان يتمتع بكل مواصفات القيادة وهبّ لقتال القوط، شاطر جنوده المشقة يقوم بتشجيعهم وتنشيطهم فأحبوه واندفعوا معه، واستغل ثيودوسيوس خلافات بين القوط ففاوضهم على أن ينخرط أبنائهم في خدمة الجيش مقابل تزويدهم بالمؤن اللازمة لعشائرهم. وفي عام 381م استطاع القوط وببسالة صد هجوم الهون وشعر البيزنطيين والقوط بخطر الهون فأصبحا أكثر تقارباً، بل وعلى استعداد لتفاهم أكبر[56] وقد انتهج الامبراطور

---

(51) إسماعيل نوري الربيعي، تاريخ أوروبا، العصور الوسطى في توزيع القوى السياسية، ط1، دار الشموع للنشر، 2001، ص14.
(52) رأفت عبدالحميد، الإمبراطورية البيزنطية العنيدة والسياسة، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص33-35.
(53) أ. ب. تشارلز ورث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، مكتبة الأسرة، 1950، ص211-218.
(54) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص30-31.
(55) السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص35-39.
(56) أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج1، ص86-90.

ثيودوسيوس سياسة عدم الصدام مع القوط، بل والاستفادة من قدراتهم في تقوية الجيش فعقد معهم صلحاً 382م أقرهم في دولة بين الدانوب والبلقان شرط أن تبقى الحصون بيزنطية وتعهد ثيودوسيوس بمعونة مادية مقابل انخراطهم في الجيش فغلب الطابع الألماني على الجيش، وهو استحسان من ثيودوسيوس وتفضيل للعنصر القوطي عن العناصر الأخرى[57] ونتيجة لما قام به الجرمان من انتصارات دفاعاً عن الإمبراطورية جعلهم إلفاً مألوفاً لدى الشعب البيزنطي ووسط هذا الوئام نجح البرابرة في تأسيس ممالك في الجزء الغربي من الإمبراطورية وباعتلاء الامبراطور جستنيان الحكم كان للقوط الغربيين مملكة في إسبانيا، والشرقيون في إيطاليا، ومملكة الفرنجة في بلاد غالة، والإنجليز والسكسون في بريطانيا، أما الوندال على شمال أفريقية، وبرغم تردد جستنيان في مقارعة الوندال إلا أنه لم يجد بُداً من إرسال قائدة بليزاريوس على رأس خمسة عشر ألف مقاتل استطاع أن يحقق انتصاراً حاسماً على الوندال 533م فلم تقم لهم بعدها قائمة ومع ذلك لم تستقر الأوضاع نتيجة لثورات البرابرة التي أخضعها جستنيان 548م[58] ثم اتجه لبسط سيادته على إيطاليا في وقت أثرَ مدارات الفرنجة لضمان عدم انحيازهم للقوط ثم إرسال أسطولاً لإسبانيا 550م نازل القوط الغربيون مستغلاً خلافاً حول العرش وحققت الحملة نتائجها واتسعت رقعة الإمبراطورية وعادت هيبتها.[59]

إزاء تلك الانتصارات بادر الفرس بتوجيه ضربة للبيزنطيين فغزو سوريا عام 540م واستولوا على انطاكيه ورغم ما نتج عن ذلك من حروب طاحنة إلا إن جستنيان أثر توقيع هدنة مع الفرس دفع بموجبها الجزية لهم مقابل استرجاع انطاكية وبدأ الضعف يغزو الإمبراطورية أواخر عصر جستنيان[60] وما إن تولى جستين الثاني (565-578م) حتى أظهر حزماً مع البرابرة ومنع دفع الجزية لهم ونتيجة لمرض ألمّ به قامت زوجته صوفيا بتصريف الأعمال بمساعدة طيبريوس الذي نودي به إمبراطوراً (578-582م) وحاول التوجه للإصلاح الداخلي فخفف عبء الضرائب عن الناس فزاد تعلقهم به[61] وقد اشتهر من خلفاء جستنيان الإمبراطور موريس (582-602م) الذي بنى علاقته مع الفرس على أساس المصلحة المشتركة وعقد معهم معاهدة عام 592م ضمَّ المنطقة من الفرات وارمينيا حتى مدينة دارا والذي تفرغ لحرب الآفار حيث دفع بكل ثقله في تلك الحرب وفي ذلك صادف أن حدثت ثورة الجند ودخلوا العاصمة وانتهت بمقتل موريس ونودي بزعيم الانقلاب فوكاس إمبراطوراً (602-610م)[62] وقد عمت الفوضى والفتن خلال حكم فوكاس، فما إن يظهر اضطراباً حتى يتمادى في قمعة بكل قسوة إلى أن انتهى أمره بتدخل ابن أراخون أفريقية هرقل بدعوى من بطريرك القسطنطينية حيث قبض على فوكاس وانتهى الأمر بإعدامه ونودي بهرقل إمبراطوراً ليؤسس أسرة حكمت من (610-717م)[63] وبرغم من استلام هرقل لإمبراطورية متهالكة إلا إنه لم يظهر اليأس وبدأ في تنظيم حكومته وجيشه وانحازت الكنيسة للإمبراطور هرقل وزودته بكل الأموال الخاصة بها فتصدى للآفار، ورغم توجهه لسياسة اللين مع الفرس إلا أنهم ردوا على الإمبراطور هرقل ووفادته برد غير لائق فباغتهم هرقل بضربة كاسحة في أرمينيا، واستعاد كبادوكيا، وطردهم عن بلاد الشام، ومصر وهاجم عاصمتهم المدائن، وقامت ثورة ضد كسرى أطاحت به، وعقد الفرس صلحاً مع الإمبراطور هرقل ردت بموجبه كل الأراضي البيزنطية التي استولى عليها الفرس.[64]

---

[57] أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج1، ص90-91.
[58] قاسم عبدة قاسم، التاريخ الوسيط حضارة البداية والنهاية، القسم الأول، ط5، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1997، ص165-166.
[59] أسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، دار المجمع العلمي، جدة، 1977، ص33-40.
[60] جوزيف نسيم يوسف، معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، ص77-91.
[61] محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص63-64.
[62] سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص122-123.
[63] جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص93-94.
[64] حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983، ص59-62.

قد استغل الآفار انشغال الإمبراطور هرقل في حربه ضد الفرس فهاجموا الإمبراطورية يساعدهم الصقالبة كما أمدّهم كسرى بجيش لمعاضدتهم إلا إن تلك الحرب تكسرت مجاديف قادتها أمام ضربات المدافعين عن العاصمة القسطنطينية.[65]

يعد بدء عصر الإمبراطور هرقل فاتحة لصراع منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي مع المسلمين وصلت لثمانية قرون كان خاتمته بسقوط القسطنطينية عام 1453م، وما يميز الإمبراطورية قبل صدامها مع المسلمين خروجها في حربها مع الفرس مهابة الجانب فقد استطاع الإمبراطور هرقل بكل الأساليب الدبلوماسية والعسكرية أن يحقق نجاحات كبيرة لحفظ الإمبراطورية وعودة سطوتها، لكن هذه المرة خانته حساباته فيما وصلت إليه الدولة الإسلامية من قوة،[66] فبينما كانت الحرب قائمة بين الفرس والبيزنطيين، كان الإسلام قد بزغ بفجره، رسالة الإسلام جاءت للناس كافة فقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رسله لمعاصريه ومن بينهم الإمبراطور هرقل الذي أحسن استقبال رسل الرسول صلى الله عليه وسلم لكن الإمبراطور هرقل لم يكترث بذلك ونظر للإسلام كنوع من العقيدة الإريوسية، لكن طلائع جيش الإسلام المتمثلة في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة كان بمثابة الصدمة لهرقل وحلفائه من قبائل العرب في تخوم الشام التي كانت تعتدي من حين لآخر على حدود الدولة الإسلامية الفتية[67] ليكمل ذلك المشوار الخليفة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بإنفاذ جيش أسامة الذي جهزه الرسول فكانت مؤتة الثانية نصراً مؤزراً لتتبعها جيوس إسلامية لفتح الشام بقيادة قادة عظام من كبار الصحابة كخالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وكانت قاصمة الظهر للوجود البيزنطي في بلاد الشام موقعة اليرموك التي منى فيها البيزنطيين بهزيمة ساحقة، ثم تتبعهم المسلمون عهد خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بقيادة عمرو بن العاص الذي أنهى وجود البيزنطيين بفتح الإسكندرية 642م وهي السنة التي توفي فيها الإمبراطور هرقل الذي حاول بكل ما يملك إيقاف المد الإسلامي والاتجاه لخلق وحدة لجبهته الداخلية وفي مقدمتها توحيد المذاهب الدينية ولكنها لم تقدم ولم تؤخر غير أن ما قام به من تنظيمات عسكرية فيما يعرف بنظام الثغور أو الأجناد (الثيمات) قد حققت نتائجها وكانت فيما بعد تمثل خط الدفاع الأول عن العاصمة القسطنطينية.[68]

لم يكتف المسلمين بطرد البيزنطيين من الشام ومصر، بل تتبعهم المسلمون في شمال أفريقيا وجزر المتوسط وفتح عمرو بن العاص ليبيا، ثم تبعهم معاوية والي الشام في جزر المتوسط في وقت مرت فيه الإمبراطورية البيزنطية بصحوة ما بين عامي (644-668م) فترة حكم قنسطانز الثاني وقسطنطين الرابع، فقد اتجه الأول لحل بعض المشاكل الخارجية المتمثلة في خطر المسلمين، في وقت سبب له السلاف قلاقل، فانتقلوا من معاهدين إلى محتلين بعض الجزر على الساحل اليوناني وهددوا القسطنطينية إلا إن قنسطانز وضعهم عند حدهم وما إن حل مشاكله مع البابا في إيطاليا وما يتبعه من ممتلكات في بقية أوروبا حتى اتجه لإحياء سياسة الإمبراطور هرقل لإعادة مجد الإمبراطورية فحارب المسلمين براً وبحراً،[69] وقد استطاع معاوية أن يجاري البيزنطيين في البحر حيث بنى أسطولاً أكد سيطرة المسلمين على حوض البحر المتوسط واستهل انتصاراته بهزيمة الأسطول البيزنطي بقيادة

---

[65] حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص62-67.
[66] عبدالرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص17-19.
[67] حسين محمد ربيع، المرجع السابق، ص62-67.
[68] المرجع نفسه، ص67-73.
[69] إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، البحر المتوسط، بحيرة إسلامية، ط2، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، ص53-71.

قنسطانز في موقعة ذات الصواري عام 655م، فتخلت الإمبراطورية عن سياستها لاستعادة بلادة الشام ومصر وأخذت تتجه نحو سياسة المحافظة على ما تبقى لها بعيداً عن الصدام.[70]

بهزيمة البيزنطيين (الروم) في ذات الصواري لم يعد الأسطول البيزنطي بقادرٍ على مواجهة الأسطول الإسلامي، وإنما اعتمد سياسة الهجوم المباغت ثمّ الانسحاب، بل إن قنسطانز أصبح على يقين بأن المسلمين لن يتركوا القسطنطينية دون مهاجمتها، إلا إنّ مقتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - ربما أخر تحرك المسلمين نحوها إن لم يكن أعطى نفساً كافياً للبيزنطيين كي يستجمعوا قواهم، فكانت غارات البيزنطيين من حين لآخر على ثغور الدولة الإسلامية أمر مسلم به لكن ظروف محيطة بالإمبراطورية خلاف هاجس المسلمين، دفعت قنسطانز بأن يفكر بنقل العاصمة إلى روما أو أي منطقة في الغرب وذلك ناتج من ما يشكله البلغار من خطورة، في وقت يتقدم فيه الصقالبة نحو القسطنطينية، فاستقر به الترحال في جزيرة صقلية، ولم ينجح في صد هجوم اللومبارديين، بل وهدد المسلمون صقلية نفسها ليغادر الحياة بعيداً عن عاصمة الشرق التي تركها بحثاً عن الاستقرار فتبعته القلاقل والاضطرابات حتى لقى حتفه ليعتلي عرش الإمبراطورية ابنه قسطنطين الرابع (668-685م).[71]

لقد خبر معاوية فنون قتال البحار ومقارعة البيزنطيين باغتهم بالصوائف والشواتي، ثم بدأ الإعداد لحملة بقيادة ابنه يزيد لمهاجمة عاصمة البيزنطيين وقد نجح المسلمون في حصارهم والتضييق عليهم ثم رفعوا عنها الحصار في صيف 664م بعد أن اثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست ببعيدة عن المسلمين وقد اتجه قسطنطين الرابع إلى إيجاد وسائل يمكن من خلالها الدفاع عن العاصمة القسطنطينية، فعمدوا إلى تقوية خطوط الدفاع الأولى على طول الحدود في آسيا الصغرى حتى يمكن عرقله الجيوش الإسلامية وإنهاك تقدمها لعاصمتهم[72] فقاموا بتوزيع الجيش على مناطق عسكرية دائمة على كل منها قائد يعطى قطعة أرض لاستغلالها ترغيباً لهم في البقاء بتلك المناطق، وقد استغل البيزنطيون انشغال عبدالملك بن مروان بقمع بعض الثورات الداخلية، فهاجموا حدود الدولة الإسلامية لكن عبدالملك استطاع بحكمته القضاء على تلك الاختراقات، معتمداً على قصر نظر جستنيان الثاني، جدّد عبدالملك معه معاهدة ليضمن من جستنيان عدم مساس الشعوب القابعة تحت سيادته الاعتداء على حدود الدولة الإسلامية مقابل ألف دينار سنوياً لجستنيان الثاني وهي أكبر الخطوات الدبلوماسية التي كسبها الأمويون ولاقت نجاحها أثناء مشاكلهم الداخلية.[73]

أمام المد الإسلامي وبالرغم من قوة الجيش البيزنطي جهز الخليفة سليمان بن عبدالملك حملة بقيادة أخيه مسلمة، وشرعت الحملة في حصار القسطنطينية براً وبحراً وأكتفى الجيش البيزنطي بان يقف موقف المدافع، ولشدة الحصار وصلت العاصمة لأصعب حالاتها، وعقد البيزنطيين صلحاً مع مسلمة بدفع دينار عن كل واحد من سكان المدينة، ثم صدرت التعليمات للجيش الإسلامي برفع الحصار.[74] وتمكن البيزنطيون من الضغط على المسلمين في آسيا الصغرى، فغادروا الجزء الغربي منها وبدأت الإمبراطورية البيزنطية تستعيد قوتها زمن الإمبراطور ليو الأيسوري الذي اهتم بالثغور، وبدأ البيزنطيون يتعاملون مع المسلمين بندية، وتبددت سمعة ليو في دفاعه عن القسطنطينية بعد أن اتجه لمحاربة عبادة الصور Holy Icons التي استخدم فيها القوة المفرطة، وأقحم الجيش في تحقيق تلك السياسة[75] فسادت بذرة الشقاق بالأوساط الدينية بين القسطنطينية وروما ورأت البابوية في الفرنجة حليفاً

---

[70] إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص73-79.
[71] حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص80-88.
[72] إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص87-141.
[73] المرجع نفسه، ص163-206.
[74] علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ج1، دار ابن القيم الجوزي، القاهرة، 2007، ص77.
[75] السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص183-208.

بديلاً فظهرت الخلافات السياسية أكثر منها دينية وقد حاول الإمبراطور قسطنطين الخامس (741-775م) عام 754م تدارك ذلك الانهيار مستخدماً سياسة أعمق في البحث عن مصاهرة مع ملك الفرنجة نظراً لشعوره بفقدان سلطة الإمبراطورية في إيطاليا، نتيجة لمقارعته المسلمين في الجبهة الشرقية، والبلغار في الجبهة الشمالية، وبعد أن حلت الفرنجة محل الامبراطورية البيزنطية في إيطاليا، أصبح الغرب الأوروبي يضم قوتين الإمبراطورية البيزنطية ودولة الفرنجة إلى جانب ضم العالم الإسلامي لقوتين الخلافة العباسية في الشرق والإمارة الأموية في الأندلس فتباينت المصالح المشتركة بين القوى المختلفة،[76] وقد استهلت الخلافة العباسية عهدها بالصدام مع الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استغل البيزنطيون الصراع الذي أودى بالخلافة الأموية، فاستولوا على املاك المسلمين منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (754-775م) مروراً بعهد الخليفة المهدي (775-785م) بالرغم ما ساد من دبلوماسية بين المهدي ومعاصره الإمبراطور ليو الرابع (775-780م) وانصرف كل طرف للاهتمام بمشاكله الداخلية إلى أن قام ليو الرابع بالاعتداء، فرد الخليفة المهدي بالمثل وأصبح الجيش البيزنطي في أعلى تكتيكاته الحربية وغلب على تلك المرحلة طابع الكر والفر.[77]

مهما بلغ الجيش البيزنطي من قوة إلا إنه كثيراً ما تقهقر أمام ضربات الجيش الإسلامي، فحملات الخليفة هارون الرشيد (786-809م) حتى قبل توليه الخلافة، كانت تظهر مدى التفوق الذي حققه المسلمون على الامبراطورية البيزنطية،[78] وبالرغم من هدنة موقعة بين الطرفين، فما اعتلى هارون الرشيد الحكم حتى نقض البيزنطيون الصلح، فكانت هزيمة ساحقة يباشرهم بالصوائف والشواتي وتلقى الإمبراطور نقفور (801-811م) هزيمة على يد الخليفة هارون التي أصبحت سيرته تخيف البيزنطيين وأحلافهم[79] لكن اعتداءات البيزنطيين ظهرت من جديد على سيادة الخلافة مما دفع بالخليفة المأمون (813-833م) أن يخرج بنفسه على رأس جيش فطلب البيزنطيون الهدنة فتعامل معهم المأمون بحذر واستمر في تقدمه حتى وصل طرسوس[80] وزادت سطوة الجيش البيزنطي على الثغور الإسلامية مما اضطر الخليفة المعتصم (833-842م) لتجهيز جيشٍ ساح به أرض بيزنطة واقتحم مدينة عمورية عنوة.[81]

ثم قدِّر للإمبراطورية البيزنطية أن تحكمها الأسرة المقدونية (867-1056م) وعرفت تلك المرحلة بالعصر الذهبي وبدأ حكام الأسرة المقدونية يوسعون أملاكهم على حساب الدولة الإسلامية ثم تجدد الضغط الإسلامي على المنطقة، وقبل البيزنطيون بسيادة المسلمين على أرمينيا في وقت كان الصراع البيزنطي البلغاري على أشده عام 904م[82] لم يقل الصراع البيزنطي الروسي قسوة لدرجة أن الروس وجّهُوا حملاتِ صوب القسطنطينية، إلا أن ما تمر به الامبراطورية البيزنطية من ظروف دفعها إلى أن تنتهج أسلوب الدبلوماسية ومدارات الروس، عُقِدَتْ معاهدات بين الجانبين لفترات متقطعة، تناولت تلك المعاهدات في المقام الأول النواحي التجارية إلى جانب تفاهمات حول قضايا سياسية[83] ولذا دفعت الإمبراطورية البيزنطية عصر الأسرة المقدونية في فترة حكمها في نصفها الثاني بسياسة الهجوم غير أن أواخر تلك الأسرة سادت الاضطرابات والثورات وتمكن أحد قادة الجيش ويدعى اسحق كومينيين من الاستيلاء على السلطة بعد أن تحصل على تأييد الأُسَرْ الإقطاعية[84] في ظل أوضاع غير مستقرة

---

(76) وديع فتحي عبدالله، العلاقات الإسلامية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 1990، ص166-170.
(77) المرجع نفسه، ص172-190.
(78) المرجع نفسه، ص198-199.
(79) أبو زيد شلبي، الدولة العباسية العصر الذهبي، ط1، مطبعة التأليف بمصر، 1969، ص223-229.
(80) المرجع نفسه، ص356-358.
(81) المرجع نفسه، ص385-388.
(82) محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص187-203.
(83) عليا عبدالسميع الجنزوري، العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1989، ص176.
(84) محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص227-302.

واستمرت الاضطرابات عصر أسرة دوقاس (1059-1081م) ولعل أشهر تلك الأحداث صدام البيزنطيين مع السلاجقة انتهت بهزيمة للجيش للبيزنطيين في معركة مانزكرت 1071م وكان لهذه المعركة أهمية بالغة فتحت الطريق للسلاجقة لغزو آسيا الصغرى وبداية لمَا تعارف عليه في التاريخ بالصراع بين الشرق والغرب[85] وقد استغل النُورمان فرصة صدام البيزنطيين مع السلاجقة واستولوا على باري آخر نقطة تواجد للبيزنطيين في إيطاليا[86] وعلى الرغم من صحوة شهدتها الامبراطورية البيزنطية عصر الأسرة الكومينينية في بداية حكمها في بث الفرقة بين الأتراك بعد هزيمة البيزنطيين في مانزكرت لكن الاستنجاد بأوروبا أمام الخطر السلجوقي كان أمراً يحتمه الواقع إلى جانب استنجاده بالبنادقة ضد النورمان تمشياً مع سياسة أسلافه في الإمبراطورية كميخائيل دوقاس (1067-1078م) الذي سبق أن طلب مساعدة من البابا جريجورى السابع (1073-1085م) لمساعدة الإمبراطورية أمام الأتراك.[87]

وصلت جموع الصليبيين للإمبراطورية البيزنطية متمثلة في الحملة الصليبية الأولى (1096-1099م) عام 1096م مقسمة على مجموعتين كانت الأولى غير منظمة، أما الثانية فكانت على أعلى مستوى من التنظيم على رأسها بوهيمند وريموند وجودفري وطلب الإمبراطور إلكسيوس (1081-1118م) من قادة الحملة قسم الولاء لإمبراطور البيزنطي وأن يعيدوا أراضي الإمبراطورية من المسلمين، غير أن الصليبيين ما إن تمكنوا من الشرق حتى تنصلوا من تعهداتهم مع إلكسيوس فكونوا إمارات وممالك صليبية لاتينية تدين بولائها للغرب الأوروبي[88] وقد زاد من محنة الإمبراطورية البيزنطية أن عرجت الحملة الصليبية الرابعة (1204-1261م) على القسطنطينية وقامت باحتلالها 1204م وبارك البابا أنوسنت الثالث (1198-1216م) تلك الخطوة واستمر اللاتين في حكمها حتى عام 1261م،[89] لقد ظهر واضحاً ضعف قوة الإمبراطورية العسكرية المتمثلة في جيشها وأسطولها رمز فخرها[90] وفي رفض لاحتلال اللاتين لعاصمة الإمبراطورية نشأت حركة قومية مناهضة للوجود اللاتيني في محاولة لأسترجاع الإمبراطورية فظهرت أسرة حاكمة في مدينة نيقيه حكمها الإمبراطور تيودور الأول (1204-1222م) كما كون البيزنطيون إمبراطورية أخرى في المنفى في طرابزون على البحر الأسود وعلى رأسها سيدٌ من أسرة كومينيين.[91]

ما ان وصلت أسرة باليولوجوس (1261-1453م) حتى ظهرت المشاكل واحتدم الصراع على السلطة وانقسم الجيش بين الفرق المتصارعة وظهرت القبائل التركية كقوة يقودها الأمير عثمان وأخذ يتوسع على حساب الأراضي البيزنطية فاستولى على نيقيه عام 1331م، بل إن الأمير أورخان هاجم القسطنطينية لكنه لم يفلح في اقتحامها، واستولى الأتراك على أدرنه وتراقيا عهد السلطان مراد الأول (1360-1389م) في عجزٍ تامٍ للجيش البيزنطي لكي يقم بأي إجراءٍ يوقف معه الخطر التركي مما اضطرّ إمبراطور البيزنطي لأن يدخل في طاعة السلطان مراد الأول عام 1374م.[92]

وسط هذا الخضم حاول أباطرة الامبراطورية البيزنطية الخروج من مأزقٍ حقيقي يتهددُ كيانهم قادمٌ لا محالة لا تجدي محاولاتهم لإيقافه فاستخدموا أساليب سياسية علّهَا تؤتي ثمارها، لكن إصرار سلاطين آل عثمان، وما يتمتعون به من قوة، وحسن تدبير جعلوا نصب أعينهم وضعُ حدٍّ لحكم

---

(85) محمد عبدالعزيز أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001، ص86-87 .
(86) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص248-249.
(87) المرجع نفسه، ص263-264.
(88) مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص23-24.
(89) المرجع نفسه، ص25.
(90) أسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، 1982، ص25.
(91) جوزيف نسيم، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية السياسي والحضاري، ص270.
(92) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص349-358.

الإمبراطورية البيزنطية الذي وصل لأحد عشر قرناً، فقد قرّر السلطان محمد الثاني (1451-1481م) استكمال فتح بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية الحصينة، وما إن علم الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر (1449-1453م) - والذي بدأ بتحصين عاصمته القسطنطينية - بنية السلطان راسله على دفع الجزية التي يقررها محمد الثاني لكنّ العثمانيين باشروا بالفعل في حصار المدينة ولم يجد الإمبراطور بُداً من أن يخرج دفاعاً عن مدينته وعاصمة ملكه التي خرّ بسببها صريعاً في ميدان المعركة ودخلت جيوش العثمانيين المدينة بقيادة سلطانهم الذي لقب بالفاتح بعد اقتحامه عنوة لأكثر المدن حصانة استعصت على المسلمين وغيرهم منذ قرون مضت.[93]

المبحث الرابع:

- النتائـج ومناقشـتها:

إن ما وصلت إليه روما من عظمة منذ نشأتها كمدينة تتوسط إيطاليا، بحيث هيأت لها الظروف كي تقود تلك المدن، بل أصبحت القصبة لأعظم إمبراطوريات العالم لمعاصرتها حقبتين ما قبل الميلاد وحتى سقوط روما بيد البرابرة عام 476م. كل ذلك نتاج لقوة استخدمتها في ظل وجود جيش منظم جعل لها اليد الطولى في كل منطقة حوض البحر المتوسط، وكان لتلك السمعة التي أطبقت الآفاق صداها عندما تسلم الإمبراطور دقلديانوس زمام الأمور واستهل عهده بإصلاحات كان جُلُّ تركيزه فيها على تنظيم الجيش وإعادة هيبته وفصله عن السلطة المدنية، والتي لعب فيها دوراً بارزاً في التدخل بتغيير الأباطرة ففي خمسين عاماً تدخل في تغيير بل في قتل خمس وعشرين إمبراطوراً ما بين عامي 235-285م يدفعه في ذلك إحياء سمعة الجيش الروماني منذ القدم والتي لم يدخر وسعاً لبعثها في جو روماني خالص، وإن ابتعد بمقر حكمه إلى الشرق حيث نيقوميديا، وتبعه أسلافه وخاصةً قسطنطين العظيم في إصلاح الحياة العسكرية والابتعاد ما أمكن عن إقحام الجيش في المشاكل، كما فعل دقلديانوس الذي كرس جزء من وقته واستغل الجيش في قمع معتنقي المسيحية في وقت كانت عينه على حركة الجرمان على حدود الإمبراطورية فوجه لهم ضربة استباقية في منطقة الدانوب.

لقد استمرت الشعوب الجرمانية وخاصة القوط الغربيين في اقتحام أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وعجز الجيش الإمبراطوري عن صدهم، فلم يكن بُداً من استيعابهم واستغلالهم للدفاع عن الإمبراطورية، وقد استعان بهم دقلديانوس رغم صدامه معهم. واستفاد منهم الإمبراطور قسطنطين بعد تسريحه لجزء من الجيش إثر استقرار الأوضاع. ثم اعتمد عليهم الإمبراطور ثيودوسيوس الاول، فضمهم للجيش واستعان بهم لدفع الخطر المتمثل في قبائل الهون الذي رأى فيهم القوط والرومان عدواً مشتركاً ليكون الاصطفاف سبيلاً وحيداً ضدهم فانخرطوا في خدمة الجيش معاهدين بل منهم من أثر خدمة الإمبراطور مباشرة.

إن ما قام به الإمبراطور ثيودوسيوس الأول من تحويل الجرمان من غزاة طامعين إلى أحلاف معاهدين زمن تدافع الشعوب بالقارة الأوربية، سياسة تنم عن حكمه في وقتها كي يتجنب صدام دامٍ تنهار ربما أمامه الإمبراطورية، غير أنّ القوط بعد وفاة ثيودوسيوس اعتبروا أنفسهم في حل من تعهداتهم مع ثيودوسيوس، وبدأ يظهر تدخلهم في الشقاق بين خلفاء ثيودوسيوس، بل سعوا لتأجيج الخلاف وقد ظهرت أصوات منذ تلك الفترة تبدي في قلقها من تغلغل العناصر الأجنبية وتنادي بطبع الجيش بالطابع الروماني، غير إنه مهما يقال فإن للجرمان فضل في الدفاع عن الإمبراطورية عن شرف الإمبراطورية أمام الهون.

---

[93] محمد فريد بك، تاريخ الدولة العليا العثمانية، ط1، مطبعة محمد أفندي مصطفى، القاهرة، 1893، ص34-37.

لقد اكتسبت الإمبراطورية البيزنطية عظمة وهيبة وقوة هي من عظمة جيشها منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس وهو يبحث عن أمجاد الرومان والحفاظ على إرثهم المتمثل في تكتيكاتهم وتنظيماتهم العسكرية، إلى جانب تمسكه بعقيدتهم الوثنية، فقد استلم إمبراطورية شبه منهكة استطاع بحنكته أن يضع إصلاحات ويقارع أعتى القوى، فوضع الفرس عند حدهم وأعاد ما استولوا عليه، ولم يهادن كل معتدٍ على أملاك الإمبراطورية مما يعطي مؤشراً حقيقياً على صلابة وقوة الجيش البيزنطي، إلا إن ما ينكر عليه انشغاله باضطهاد المسيحية واستغلاله للجيش لتحقيق تلك السياسة في وقت قابل المسيحية تلك السياسة بصبر وثبات وازدادت انتشاراً بعد تخليه عن الحكم، ليأتي الإمبراطور قسطنطين من بعده بسياسة بعيدة عن الإجبار، بل استخدم السياسة بعد قضائه على خصومه، وربط المودة بينه وبين المسيحيين، واتجه نحو تهدئة المشاكل الداخلية، وأصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية بعد أن رأى لا جدوى من الحكم الرباعي، وأدخل التوريث في الحكم بمساعدة المسيحيين، ومعاضدة الجيش، في وقت لم يقطع حبال الود مع الوثنيين.

لقد وصلت الإمبراطورية إلى درجة عالية من الاستقرار الناتج عن سياسة أباطرتها، وقوة جيشها، مما مكّن للإمبراطور جوليان من صد الخطر الفارسي، لكن الجيش لم يستطع صد الجرمان الذين بدأوا ينسابون داخل الإمبراطورية، فقتل الإمبراطور فالنز على يد القوط الغربيين في معركة أدرنه 378م، وما إن استقرت الأوضاع للإمبراطور ثيودوسيوس الأول حتى أوقع ضربات موجعة بالقوط، ثم اتجه لمهادنتهم ومداراتهم وعدم إقحام الجيش في صدام معهم، ورأى أن يستعين بهم فعقد معهم معاهدة تزويد عشائرهم بالمؤن شرط انخراط أبنائهم في الجيش.

الحقيقة إن سياسة الامبراطور ثيودوسيوس الأول لاقت هوىً عند القوط فقد حُلّتْ مشاكلهم من المؤن، وفي نفس الوقت رأوا في الهون قوة ضاغطة لا يمكنهم صدّها إلا بمساعدة البيزنطيين وينطبق الأمر تماماً على البيزنطيين فتفانى القوط دفاعاً عن الإمبراطورية، إلا إنهم أصبحوا في حل من تعهداتهم بمجرد موت ثيودوسيوس، ونشوب الخلاف بين أبنائه فلجأ أركاديوس إلى سياسة أعمق معهم بحكم أنهم متنفذين في الجيش فانتهج سياسة الإيقاع بين خصومه.

في كل الأحوال أصبحت الإمبراطورية البيزنطية أمام أمر واقع يتطلب تحكيم العقل للتعامل معه، فقد نشأت داخل الإمبراطورية ممالك من جرأ سياسة المهادنة تلك، فكون القوط الغربيين مملكة بإسبانيا، والشرقيون في إيطاليا، ومملكة الفرنجة في غالة، والإنجليز والسكسون في انجلترا، أما الوندال فسيطروا على شمال أفريقية إحدى أهم أقاليم الإمبراطورية، ولم يكن من سبيل أمام الإمبراطور جستنيان إلا مقارعتهم، وبمهارة قائدة بليزاريوس وقوة جيشه دحرهم وعادت هيبة الإمبراطورية في شمال أفريقيا، في وقت حارب فيه الفرس عن غير رغبة منتهجاً سياسة اللين معهم، ممّا اضطر جستنيان لدفع الجزية لهم، وقد حاول خلفاء جستنيان الاستمرار على خطى من سبقهم، فأظهر الإمبراطور جستين الثاني الشدة ضِدّ البرابرة والإمبراطور موريس الذي دفع بكل ثقله ضد الآفار وارتبط بعلاقات جيدة مع الفرس.

لقد تعلم أباطرة الامبراطورية البيزنطية من مصير إخوانهم في الغرب درساً قاسياً فيما يتعلق بتكوين جيوشهم. فقد ترك أباطرة الرومان الغربيين ابناء جلدتهم في الكتائب الرومانية ينغمسون في حياة اللهو والترف، بينما استخدموا الجرمان لحماية دولتهم والعمل على حفظ الأمن والنظام والسلام الروماني في مدينة روما. ولكن تلك الكتائب التي استخدموها للمحافظة على ملكهم، كانت هي المعول الذي هدم تلك المدينة. ذلك لأن الجند المرتزقة كانوا من جيش واحد وكان من السهل تجمع كلمتهم تحت إمرة قائد واحد يوجههم الى قلب الإمبراطورية. وهذا هو ما حدث بالفعل في أخريات أيامها. اما الأباطرة البيزنطيين في الجزء الشرقي، فقد لجأوا الى طريقة اخرى يمكن بها علاج المساوئ التي نجمت عن وحدة الجنس في صفوف الجيش. فلم يقتصرون على استخدام المرتزقة على الجند الجرمان الذين جعلوا منهم عدة كتائب

فقط. ولكن استخدموا أيضاً الجند المرتزقة من أجناس اخرى مختلفة وميول مختلفة وفي بعض الأحيان من أديان مختلفة وبذلك يضمنون عدم توحيد كلمة الجيش المشعب في الأصل، والاتجاه، واللغة، والجنس، والدين، والعادات والتقاليد، تحت إمرة رجل واحد. فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الإمبراطورية. ولذلك نجد الى جانب كتائب الجرمان، كتائب من القوط، والهون، والفرنجة، والنورمان، والبلغار، والروس، وعناصر من الأتراك كالبجانكية، والكومان وغيرهم.

مع تعاقب السنين، بل القرون يبرهن الساسة البيزنطيين على مقدرتهم على النهوض بالإمبراطورية كلما مرت بمحنة وقفوا لمواجهتها بواسطة قوة عسكرية ما تلبث أن تستثمر مواطن الضعف إلى قوة والهزيمة إلى نصر وليس أدل على ذلك ما قام به أراخون شمال أفريقيا الذي هب لنجدة العاصمة وأنهى حكم فوكاس حيث لقى مصرعه ونودى بهرقل إمبراطوراً 610م، وأخذ على عاتقه إحياء مجد الإمبراطورية، فنهج أسلوب السياسة مع الفرس، لكن فضاضتهم وغطرستهم عجلت بالصدام معهم، فباغتهم الإمبراطور هرقل في أرمينيا وتقهقر الجيش الفارسي أمام ضربات الجيش البيزنطي، بل وصلت جحافل البيزنطيين عاصمتهم المدائن، وكانت سبباً في ثورة ضد كسرى التي اسقطت حكمه ونادت بغيره إلى أن انتهى حكم الفرس تماماً على يد المسلمين بحركة فتحهم الكبرى.

إن صحوة الإمبراطورية البيزنطية أمام الفرس وهزيمتها لهم قدر أن تواجه قوة متمثلة في الدولة الإسلامية التي شقت طريقها عبر الفيافي والقفار ونتيجة لعدم حسن تقدير الإمبراطور هرقل لقوة المسلمين، عملت على تقويض حكمه من بلاد الشام، ومصر، وشمال أفريقيا عهد الخلافة الراشدة، وتعقبهم بأعالي البحار بواسطة أسطول معاوية الذي هاجم الإمبراطورية البيزنطية وحاصر عاصمتها، ثم حاصرها المسلمون عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك بقيادة أخيه مسلمة، وسيطر المسلمين على جزء من جزر بحر إيجا.

إن فترة الصدام بين الإمبراطور هرقل والمسلمين فاتحة لصراع استمرّ لثمانية قرون لم يتوقف حتى دخل محمد الفاتح العثماني عاصمتهم وفتحها عام 1453م، ولقد أعقب دك البيزنطيين في معاقلهم فترة صحوةٍ لهم في الفترة ما بين 644-668م لدرء خطر السلاف والمسلمين فتحول البيزنطيون من طور المدافع للمهاجم فأصبحت أساطيلهم تغير على سواحل مصر والشمال الأفريقي فالإمبراطور قنسطانز أخذ يحاول إعادة مجد الإمبراطورية البيزنطية كأسلافه وعلى رأسهم هرقل، ولكن تلك السياسة لم تعد مجدية فقد أصبح للمسلمين أسطولاً يحارب، بل أكثر الأسطول البيزنطي فاكتفوا بالدفاع عن ما تبقى لهم من أملاك الإمبراطورية.

قد غلب في هذه الفترة على الجيش البيزنطي أسلوب الهجمات الخاطفة براً كانت أو بحراً أو الدفاع عن مدنهم وحصونهم من داخلها بواسطة دفاعات متوفرة لديهم في تلك الفترة كالنار اليونانية، إلى جانب تقوية خطوط دفاعاتهم في آسيا الصغرى كي يمكن عرقلة الجيوش الإسلامية وانهاكها قبل الوصول للقسطنطينية بعد أن أصبحت طلائع جيش المسلمين تصل من حين لآخر وتقاتل تحت أسوار عاصمتهم القسطنطينية.

إن كان الصراع بلغ ذروته عهد الخلافة الأموية إلا أن ذلك الصراع لم يحسم من أحد الطرفين ويعزى ذلك لمشاكل داخلية ألمت بالجانبين فعلاقات الإمبراطورية البيزنطية مع غرب أوروبا تدفعها بأن تكون حذرة بعدم الانجرار لصدام عميق مع المسلمين قد يكون سبباً لهجمات على حدودها من أعدائها في الغرب الأوروبي، ناهيكم عن خلافاتها مع الصرب، والآفار، إلى جانب الروس الذي يغلب عليه صراع السيطرة على طرق التجارة، إلى جانب ظهور قوة الفرنجة في الغرب الأوروبي التي أصبحت حليفاً للبابوية بروما، مما دفع بالإمبراطور قسطنطين الخامس للبحث عن مصاهرة مع الفرنجة كي يضمن

تحييدهم في صراعة مع البابوية وهو أمر يضمن الابتعاد تماماً عن الصدام المباشر الذي لا تسمح ظروف الجيش البيزنطي به في هذه الآونة.

في فترة الصراع الأموي العباسي هبّ البيزنطيون لافتكاك بعض المناطق الواقعة تحت حكم المسلمين، فعاثوا فساداً بمرعش وأجزاء من بلاد الشام، غير أن الأمر ما استقر للعباسيين حتى باغتهم أبو جعفر المنصور، فالمهدي إلى جانب هارون الرشيد الذي ما إن فكّ يهاجمهم بالشواتي والصوائف حتى قبل أن يصبح خليفة إلى جانب توليه قيادة الجيوش لتأديب البيزنطيين حتى بعد أن تولى أمر المسلمين ناهيكم عن المعتصم بالله الذي جاس ديار الإمبراطورية البيزنطية بجيش جرار إلى ان اقتحم عمورية مسقط رأس إمبراطورهم.

مع ما أصاب الإمبراطورية البيزنطية ويصيبها من وهن وانهيار تستطيع أن تثبت حضورها وتبرهن على هيبتها، فقد شهدت قوة وازدهار في عصر الأسرة المقدونية حيث دالت فيها الإمبراطورية البيزنطية على الخلافة العباسية في آخر سني حكمها وأنزلت الهزائم بالحمدانيين التابعين لدار الخلافة في أنطاكية وحلب فخرجت الإمبراطورية البيزنطية من طور الضعف والانكماش إلى طور القوة والهجوم وأطبقت سمعة الإمبراطورية الأفاق إلى أن ظهرت قوة السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى التابعة للخلافة العباسية حيث منيت الإمبراطورية البيزنطية بهزيمة ساحقة في مانزكرت 1071م وكان ذلك سبباً في طلب المساعدة من أوروبا من قبل الإمبراطور الكسيوس لمساعدة الإمبراطورية لاسترداد أملاكها لكن الصليبيين لم يكترثوا بعهودهم للإمبراطور وأسسوا ممالك لاتينية بالشرق الإسلامي، وفي هذه الفترة بدأت الإمبراطورية تسير نحو مصير مجهول فجيشها محطم المعنويات لحقت به هزائم لا يزالُ شبحها يخيم على ذاكرته، فقد غادرت الإمبراطورية البيزنطية وأساطيلها حوض غرب المتوسط أمام ضربات المسلمين، وانتهى حكمها في إيطاليا باستيلاء النورمان على مدينة باري، فوضعت كل ثقلها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط لكنها ما خرجت من مأزق إلا وقعت في آخر وليس من شك في أقدام الصليبيين على احتلال العاصمة القسطنطينية عام 1204م في الحملة الصليبية الرابعة كان بمثابة أخطر ضربة لها منذ تأسيسها فاعتبرها المؤرخين السنة الحقيقية لنهاية الإمبراطورية البيزنطية.

بالرغم من حركة الأحياء الداعية لعودة الإمبراطورية البيزنطية للواجهة بعد احتلال اللاتين لها في الحملة الصليبية الرابعة، وقيام إمبراطوريات من قبل أسر بيزنطية في المهجر كما في نيقيه وطرابزون وبعد انتفاضات في القسطنطينية ضد الوجود اللاتيني الغربي وظهور أسرة باليولوجوس بالعاصمة اذاناً بعودة حكم البيزنطيين، إلا إن المشاكل، واحتدام الصراع على السلطة، وعجز الجيش عن وضع حد لتلك المماحكات، بل انقسامه هو على نفسه، واكب كل ذلك ظهور الأتراك كقوة وزعيمهم الأمير عثمان الذي أخذ يوسع حدود سلطنته على حساب أملاك الإمبراطورية البيزنطية، بل واتجه الأمير أورخان لحصار العاصمة القسطنطينية وإن فشل في اقتحامها إلا إن آل عثمان باتوا يشكلون خطراً على البيزنطيين وعاصمتهم الحصينة، بل أن الإمبراطور البيزنطي أثر الدبلوماسية أمام قوة الأتراك وأعلن دخوله في طاعة السلطان مراد الأول عام 1374م، لكن العثمانيين استمروا في ضم أراضي الإمبراطورية البيزنطية إلى أن وضعوا حداً لحكمها باقتحام القسطنطينية عصر آخر أباطرتها قسطنطين الحادي عشر الذي خرّ صريعاً دفاعاً عن عاصمة ملكه لكن عهد السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح بعد دخوله القسطنطينية.

- الخاتمة والتوصيات:

1- الخاتمة:

من خلال استعراضنا لموضوع (الجيش البيزنطي وأساليبه الدفاعية عن الإمبراطورية) فعلى مدى أحد عشر قرناً وما تخلل ذلك من فترات قوة واستقرار أو توتر وانكماش ليبرهن الجيش البيزنطي تارة بالسياسة وأخرى بالقوة أنه المصدر الحقيقي لهيبة وازدهار الإمبراطورية البيزنطية منذ فترة تعدت العشر قرون من التاريخ، فما أن تصاب الإمبراطورية البيزنطية بكبوة حتى تعقبها سطوةٌ بفضل ساستها وتكتيكات جيشها، ناجز وحارب على كل الجبهات منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس وحتى سقوطها على يد الأتراك في حروب على كل الجبهات فما أشتبك في جبهة إلا رابه أمرُ متربصٍ به الدوائر في جبهة أخرى ولو كانوا أبناء العقيد والعرق.

لعل الفضل ينسب لأهله فللعناصر الأجنبية دورها في قوة الجيش وهيبته، لكن ذلك كان وبالاً في بعض المواقف كما في تدخل القوط الغربيين أثناء صراع خلفاء الإمبراطور ثيودوسيوس ومساهمتهم في إشعال فتيل الفتنة فإن كانوا تفانوا في الدفاع عن الإمبراطورية فإن شغلهم الشاغل كان بحثاً عن مصالحهم فلم، تعد للإمبراطورية أهمية تذكر أمام المغريات المادية والمناصب القيادية.

2- التوصيات:

إنّ من الصعوبات التي تواجه الباحث في دراسة مثل هذا الموضوع طول المدة المستهدفة من الدراسة فقد ضمت الإمبراطورية منذ قيامها وحتى سقوطها، ولذا من الفائدة تقسيم فترة دراسة تاريخ هذه الإمبراطورية على عدة مراحل لتكون دراسة شاملة وأدق.

- قائمة المراجع:

- اولاً: المراجع العربية:

- أ. ب. تشارلز ورث. 1950م. الإمبراطورية الرومانية. ترجمة رمزي عبده جرجس. مكتبة الأسرة.
- إبراهيم أحمد العدوي. 1963م. الأمويون والبيزنطيون. البحر المتوسط. بحيرة إسلامية. ط2، الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة.
- إبراهيم نصحي. 1978م. تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام 135 ق.م. ج1. ط2. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.
- إبراهيم نصحي. (بدون تاريخ) تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام 133 ق.م. ج2. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.
- أبو زيد شلبي. 1969م. الدولة العباسية العصر الذهبي. ط1. مطبعة التأليف بمصر.
- أسد رستم. 1955م. الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. ج1. ط1. دار المكشوف. بيروت.
- أسمت غنيم. 1977م. إمبراطورية جستنيان. دار المجمع العلمي. جدة.
- أسمت غنيم. 1982م. الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية. دار المعارف.

- إسماعيل نوري الربيعي. 2001م. تاريخ أوروبا. العصور الوسطى في توزيع القوى السياسية. ط1. دار الشموع للنشر.

- جوزيف نسيم 1987م. تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها. ط2. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت.

- جوزيف نسيم يوسف. 1990م. معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

- حسين الشيخ. 2002م. الرومان. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

- حسنين محمد ربيع. 1983م. دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. دار النهضة العربية. القاهرة.

- دونالد. ر. دولي. (بدون تاريخ) حضارة روما. ترجمة جميل يواقيم وفاروق فريد. دار نهضة مصر للطباعة. القاهرة.

- رأفت عبدالحميد. 2000م. الإمبراطورية البيزنطية العنيدة والسياسة. ط1. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.

- سيد أحمد على الناصري. 1991م. تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري. ط2. دار النهضة العربية. القاهرة.

- سعيد عبدالفتاح عاشور. 1972م. أوروبا العصور الوسطى. ج1. ط5. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.

- السيد الباز العريني. 1982م. الدولة البيزنطية 323-1081م. دار النهضة العربية. بيروت.

- ستيفن رنسيمان. 2005م. الحضارة البيزنطية. ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد. دار الفكر العربي. بيروت.

- عبدالرحمن أحمد سالم. 1997م. المسلمون والروم في عصر النبوة. دار الفكر العربي. القاهرة.

- عبدالقادر أحمد يوسف. 1968م. العصور الوسطى الأوروبية. مكتبة العصر. بيروت.

- عفاف سيد صبرة. 2012م. تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. ط1. دار المسيرة للنشر والتوزيع. عمان.

- عليا عبدالسميع الجنزوري. 1989م. العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة.

- علي محمد الصلابي. 2007م. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار. ج1. دار ابن القيم الجوزي. القاهرة.

- قاسم عبدة قاسم. 1997م. التاريخ الوسيط حضارة البداية والنهاية. القسم الأول. ط5. عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

- محمد فريد بك. 1893م. تاريخ الدولة العليا العثمانية. ط1. مطبعة محمد أفندي مصطفى. القاهرة.

- محمد محمد مرسي الشيخ. 1988م. تاريخ أوروبا العصور الوسطى. مطبعة الجمهورية.

- محمد محمد مرسي الشيخ. 1996م. تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

- محمد عبدالعزيز أبو النصر. 2001م. السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري. ط1. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- محمود سعيد عمران. 1982م. معالم تاريخ أوربا العصور الوسطي. دار النهضة العربية. بيروت.

- محمود سعيد عمران. 2003م. معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي) دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

- مصطفى وهبة. 1997م. موجز تاريخ الحروب الصليبية. ط1. مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع. القاهرة.

- هـ. أ. ل. فشر. 1966م. تاريخ أوربا العصور الوسطى. ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني. القسم الأول. ط1. دار المعارف بمصر. القاهرة.

- هـ. ج. ويلز 1958م. موجز تاريخ العالم. ترجمة عبدالعزيز توفيق. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

- وديع فتحي عبدالله. 1990م. العلاقات الإسلامية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة. إسكندرية.

- ويل وإيريل ديورانت. 1955م. قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. ج3. دار الجيل. بيروت.

- ثانياً: المراجع الاجنبية:

- Bury, J. B. 1930. *A History of the Roman Empire from its foundation to the death of Marcus Aurelius (27 B.C- 180 A.D)*. London: n.p.

- Dennis, G. T. 1984. *Maurice's Strategikon, Handbook of Byzantine Military Strategy*. University of Pennsylvania Press.

- Dawson, T. 2001. *Klivanion* revisited: an evolutionary typology and catalogue of middle Byzantine lamellar. *Journal of Roman Military Equipment Studies*. 12/13.

- Encyclopædia Britannica. (2017 AD). Retrieved 26th, July from 2017 to 28th, October from Encyclopædia Britannica Online:

  http://www.britannica.com/

- Finlay, G. 1877. *History of Greece from Conquest by the Roman to the Present time (146 B.C-1884 AD)*. Vol. III & IV. Oxford: n.p.

- John, H. 2008. *The Byzantine Wars*. Stroud: The History Press.

- Ostrogorsky, M. 1956. *History of the Byzantine State*. Translated by Hussey, J. Oxford: n.p.

- Treadgold, W. T. 1995. *Byzantium and Its Army, 284-1081*. Stanford University Press.

- Vasiliev, A. 1952. *A History of the Byzantine Empire 324-1453 AD*. I & II vols. Wisconsin: n.p.

- Warren, T. 1997. *A History of the Byzantine State and Society*. Stanford & California: Stanford University press.

- Whately, C. 2015. "Battles and Generals: Combat. Culture. and Didacticism in Procopius' wars". Brill.